هكذا هي الحياة!!

هكذا هي الحياة: محمد غنوم

رقم الإيداع: ٢٠١٩/١٦٨٧٤

ردمك: ٣-٨٢-٦٧٣٠-٩٧٧-٩٧٨

إن منصة كتبنا للنشر الشخصي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف ولا تعبر بالضرورة عن آراء المنصة والعاملين فيها.

محمد عبد المعين غنوم

هكذا هي الحياة!!

الجزء الأول

مجموعة قصصية

كُتُبنا
KOTOBNA

إهداء

أهدي هذا العمل

إلى كل من أحبه ويحبني...

إلى كل من شجعني على الكتابة...

إلى كل من سيقرأ كلماتي...

إلى كل من سينبهني أخطائي لأصححها...

إلى كل من سيلهمني بأفكاره لتصبح كتابتي أفضل...

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد المرسلين.

أحبتي الكرام، أضع بين أيديكم كتابي (هكذا هي الحياة!!)

وهو عبارة عن مجموعة من القصص القصيرة؛ التي تعبر عن الحياة التي نعيشها، والأيام التي نمر بها، فالحياة متلونة، متغيرة، متبدلة، لا تثبت على حال؛ فهناك لحظات فرح، وسعادة، وهناك لحظات ألم، وعذاب.

هذا المزيج من الضحك، والبكاء، والأفراح، والأتراح؛ لا بد وأنه مر على كل واحد منا. وكذلك فإن الحياة تحتوي على أشكال وألوان عديدة، فهناك قصص سرقة حدثت وأخرى عن الخيانة الزوجية، أو الحسد، أو سوء الحظ، أو الفراق...

لذلك وضعت في كتابي هذا قصصًا تتحدث عن جوانب عديدة.

وحرصت أن يكون في كل قصة عبرة، وموعظة، وحكمة، تفيد من يقرؤها في حياته، وعمله، وتعامُله مع الناس، وآمل أن تكون مفيدة للصغار، وللكبار. وحاولت الاختصار بالقصص ما أمكن؛ لأحافظ على رونقها، والهدف المنشود من كتابتها، فأتجنب الحشو، والكلام الزائد الذي يطيل القصة من غير فائدة.

فأرجو أن ينال كتابي هذا على إعجابكم.

وأتمنى أن توافوني بآرائكم، وانتقاداتكم، وأن تنبهوني على مواطن الخلل، وأماكن الخطأ، بالتعبير، أو السرد، أو التصوير البياني...

فالوقوع بالخطأ أمر لا بدَّ منه؛ إذ جل من لا يخطئ...

وأرحب بأفكاركم، التي ستقودني نحو الأفضل- بإذن الله.

مع تمنياتي لكم بالسعادة الدائمة، والحياة الناعمة،

ودمتم بخير.

محمد عبد المعين غنوم

وحيدًا

كنت وحيدًا أمشي في الطريق،

وإذا بفتاة تمشي أمامي على بعد خطوات مني؛ يفوح عطر ملابسها، وكأنها أفرغت كل الزجاجة على ثيابها.

صار تركيزي عليها وعلى خطواتها، حتى أني تعثرت في حفرة وكدت أسقط لولا أن أحدهم مدَّ يده وسحبني قبل أن أفترش الأرض، رغم أني كنت أمشي مغمض العينين ولا أتعثر بها فهذا الطريق أمشي عليه عشرات المرات كل يوم،

وعليه رسمت آلاف الخطط المستقبلية، وكيف سأتخلص من فقري، وكيف سأشتري سيارة فارهة أباهي بها جارتنا التي كانت لا تلتفت إليَّ، ولا تعيرني انتباهًا. ولطالما حاولت التحدث معها فتمنعت، وتقول هيهات هيهات.

وفجأةً، التفتت تلك الفتاة إلى الخلف فرأتني، فتبسمت ابتسامة خفيفة ثم أدارت وجهها وتابعت طريقها.

فأسرعت بالمشي وقلت لنفسي لقد أتى اليوم الذي سأباهي به جارتنا، وسأجعلها تغتاظ مني عندما ستراني أمشي، وأتحدث، وأضحك، مع هذه الفتاة الجميلة.

فعندما أدارت وجهها بدا كالبدر إذا تراءى لناظر؛ وقد انحجبت عنه الغيوم، ولاح من عينيها نور أحسست فيه زوال الهموم.

وبت أقترب منها أكثر وأكثر حتى صرت بمحاذاتها، وأصبحت خطواتنا متناغمة.

تنهدت قليلًا قبل أن أكلمها، فخانتني الكلمات. حاولت ثانية، ولكني صرت كالأخرس، فلم أستطع التفوه بأي شيء. ضربات قلبي باتت مسموعة لي، وجسمي بدأ يرتجف، لكني تذكرت جارتنا وكيف سيبدو وجهها وهي ترانا. فجمعت قواي وقلت لها:

- كيف حالك؟

التفتت إليَّ ثم أدارت وجهها دون أن تنطق بشيء. فكررت سؤالي لها فقالت لي:

ماذا تريد؟ هل يمكنني أن أساعدك بشيء-؟

ارتبكت كثيرًا، وما عدت أعرف ماذا أقول أو ما الذي أصنعه؟!

فقلت لها: لقد نظرت إليَّ قبل قليل وابتسمت. لا أدري ربما تعرفينني من قبل، أو تكوني إحدى بنات جيراننا اللواتي كنا نلعب معهن ونحن صغار، ثم غادرن الحي وانتقلن إلى مكان آخر.

فقالت لي: كنت أنتظر رفيقتي فنظرت إلى الخلف لأنني حسبتها صارت خلفي، فأدرت وجهي لأقول لها مرحبًا، فرأيتك؛ فاتبسمت خجلًا لأنك لم تكن هي، ثم تابعت مسيري.

كالصاعقة كلامها نزل عليَّ.

وما هي إلا لحظات وإذا ببنت تسلم علينا وتقول لها: اعذريني، تأخرت عليك.

كان الصوت مألوفًا لي. نظرت لأرى صاحبة الصوت فإذا هي جارتنا المتكبرة.

أطرقت رأسي وتنحيت إلى الخلف وعُدْتُ أكمل طريقي لوحدي.

القمر الحزين

في كل يوم بعد العشاء، أصعد إلى سطح المنزل الذي أسكن فيه بعد نهار طويل من التعب والعناء.

فمن بزوغ الشمس يبدأ عملنا إلى غروبها، وكأنه عقوبة لنا تحت أشعة الشمس الملتهبة التي لفحت وجهي حتى بات أسمرَ.

هذه الليلة هادئة، نسماتها عليلة، والقمر فيها طغى بظهوره فلست أرى في السماء سواه.

تأملته كثيرًا فإذا به يمد خيوطا من نوره نحوي وكأنها يداه بات يربت بهما على كتفي، ويمسح على رأسي وكأني به عالم بحالي فهذه الغربة أنهكتني، والمصائب عليَّ تتوالى كحارس مرمى؛ كلما تصدى لكرة، أتته أخرى أقوى فلا تتركه حتى تطرحه أرضًا.

فزوجتي ماتت خلال ولادتها فخسرتها هي وابني الذي حلمت كثيرًا بقدومه، وكيف سيملأ حياتي ويخفف من وجع البعد والفراق.

وذهبت الزوجة التي كانت تقوي من عزيمتي كلما خارت قواي، أو شرعت أرفع رايات الاستسلام للظروف التي تعصف بي من كل حدب وصوب.

نظرت بعمق إلى القمر فإذا بعينيه تفيضان حنانًا، ثم تفجرت أنهارًا، واقترب مني وأخذني إلى حضنه فهو حزين مثلي،

فأخذتني سِنة من النوم.

فإذا بي في بلدتي التي عشت بها أيام طفولتي

فنزلت عليَّ السكينة، وأحسست براحة نسيتها منذ زمن بعيد.

رأيت أمي ودموع الفرحة تملأ وجهها، وزوجتي أتت نحوي مسرعة تحمل ابني وتقول لي: تعال، وانظر إليه فهو نسخة منك.

اقتربت منها خطوة، فإذا بي أقوم فزعًا من غفوتي فقد لامست يدي إبريق الشاي الساخن.

مسحت دموعي مردداً: الحمد لله على كل حال؛ فلا شيء يكتمل معي حتى الأحلام.

حَرْب الماء

انتهينا من الغداء منذ وقت، وأشرفنا على الانتهاء من شرب الشاي، وما زال الجو يزداد حَرًّا، والمرواح ممنوعة في سكننا الجامعي، وكذلك البرادات، فكيف نخفف من حدة الحَرِّ؟

خطرت ببالنا فكرة جميلة فقمنا إلى الممر أمام غرفتنا، وإذا بجميع الغرف مفتحة أبوابها يلفح منها الحر كأنها حمام. صرخت بصوت عالٍ:

- وجدنا الحل لهذه المشكلة.

وفي لمح البصر، تجمع العديد من الشباب حولي وقالوا:

- أغثنا بأفكارك. كدنا نهلك.

قلت لهم: إنها حرب الماء.

جميعهم صاحوا بصوت واحد مع تعجُّب شديد:

- حرب الماء؟؟!!

- نعم، إنها حرب الماء.

إن الجناح الذي نسكنه ينقسم إلى قسمين وتتوسطه قاعة للمطالعة. في أي وقت تذهب فيه تجد وائلًا منهمكًا بالدراسة لا يبالي بالحر، وحق له هذا وهو من الأوائل على دفعتنا فلا يترك دقيقة من وقته تمر دون حفظ أو مراجعة؛ وهو طالب خلوق سميح، لا يحب المشاكل، ويهرب منها كالغزال إذا صادف نمرًا مفترسًا.

بسرعة البرق دخل الشباب إلى غرفهم وما هي إلا هنيهات فإذا بالطناجر والصحون امتلأت بالماء وبدأ التراشق بيننا.

نسيطر على قسمهم مرة فيدخلون ويغلقون غرفهم، ثم يشنون خطة محكمة يجبروننا فيها على التراجع والانسحاب، فيحكمون سيطرتهم على قسمنا. وهكذا تمر اللحظات فتارة نسيطر، وتارة أخرى تكون الغلبة لهم، والضحك يملأ وجوهنا، والحر غضب منا؛ فحزم أمتعته وغادر دون أن يبوح بأي شيء.

وعلى حين غرة، دخلت إلى قاعة المطالعة ومعي طنجرة مملوءة بالماء، وضعتها على إحدى الطاولات، ونظرت إلى وائل الذي تذمر من أصواتنا؛ فكل حين يخرج ويقول لنا:

- أرجوكم، يا شباب، أريد أن أحفظ المحاضرة.

وأصواتكم تزعجني، وتشتِّت انتباهي.

- لماذا لا تشارك معنا؟

فأجابني: ليس لدي وقت، وعندي واجبات كثيرة.

- يا وائل، أعطني هذا الكتاب الذي بيدك قليلًا.

وما إن أعطاني إياه حتى حملت الطنجرة وأفرغت بعضا من الماء عليه، وحملت الكتاب وجريت.

تحمس وائل وأسرع إلى الطنجرة كي يفرغها علي، لكنني سبقته وفتحت باب المطالعة لأهرب. حينها، رمى وائل ماء الطنجرة فأنزلت جسمي للأسفل لأتفادى الماء؛ وإذا بالماء ينسكب على مشرف الوحدة. نظرت بطرف عيني إلى الأعلى، فرأيت الماء ملأ المشرف من رأسه حتى قدميه، وكأن وائل أفرغ خزانًا بملئه، وليس القليل الذي بقي في الطنجرة.

سكت المشرف للحظات.

ووائل جمد في مكانه.

صرخ المشرف بأعلى صوته: ما هذا الإزعاج في وقت الظهيرة والطلاب نائمون؟ أحضر بطاقتك السكنية واتبعني؛ لنعاقبك بالفصل النهائي من السكن الجامعي، فإنك لا تستحق الإقامة هنا أبدًا.

على فِراش الموت

مع إشراقة الشمس، علت صافرات الإنذار لسيارة الإسعاف. صوتها كان يأتي من ناحية الطريق السريع. نعم، إنه أسرع طريق للموت؛ فكل يوم حادث وموت ومشاهد تشيب لها الولدان.

صوت جارتنا- أم غيث- ملأ أركان بيتنا. هببت مسرعًا لأرى ما الخطب الجلل الذي نزل.

قالت- بصوت تخنقه الدموع-:

- إن ابني- غيثًا- قد تعرض لحادث أليم، وهو بحالة خطيرة. ذهبت إلى المشفى مسرعًا، وذكريات الماضي باتت تعيد نفسها أمامي مشهدا تلو الآخر؛ فغيث هو صديق الطفولة، ومستودع أسراري، والضحكة في حياتي. يخرج من الصباح الباكر ولا يعود إلا بعد غياب الشمس، يصارع الصعوبات كي يؤمن لأهله ما يغنيهم عن سؤال الناس. فعفَّته مضرب المثل. تزوج وهو ابن عشرين عامًا، وكنت أعارضه بذلك لأنه لم يكن يملك عملًا حينها، ووضعهم المعيشي مزرٍ جدًّا.

لكن الرزق بيد الله.

وهو يطمح أن يصبح ابنه شابًّا قبل أن يبلغ الأربعين عامًا. ليس كمثلنا نصل لأرذل العمر قبل أن نرى أولادنا شبابًا هذا إن كان قدر لنا العيش لذلك العمر.

دخلت المشفى كالمجنون اصطدمت بكثير من الأشخاص الواقفين في الممرّات.

أقوم بعد كل سقوط لأتابع جنوني وأنا أصيح:

- أين غيث؟ أين غيث؟

فتحت الباب فإذا به مسجى بدمائه وحوله زوجته تنوح وتصرخ وابنه مصطفى ذو الأربع سنوات يبكي بحرقة، ودموعه كنهر تفجر وسال على وجه أبيه.

كم كان يقف أمام باب بيتهم لينتظر قدوم والده، ويركض إليه ليحمله ويضمه.

يا أبت، لا ترحل. ابق معنا.

نظر إليَّ غيث فتبسم؛ فضممته. حاول أن يكلمني ولكن المنية عاجلته ففاضت روحه إلى بارئها.

خرجت من الغرفة باحثًا عن مكان أبكي فيه دون أن يراني أحد.

وأعلم أنه كان يريد إخباري أنه لو لم يتزوج لما عاش ابنه يتيمًا.

إرادة الله وقدره فمن منا يعلم الغيب، وما يدريك لعلك تتزوج ولا يرزقك الله أولادًا، أو تموت فيقال عنهم أيتام، أو يموت ابنك صغيراً فيتفطر قلبك عليه.

دع التفكير في المستقبل، وادعُ الله أن يكون كما تحب وترضى، آه وآه ثم آه ويا ليته اقتنع بما قلته له حينها.

امتحان اللغة الأجنبية

أحمد طالب في السنة الرابعة؛ تعرفت عليه عندما قدمت إلى كليتنا لأول مرة لأسجل بها، وأكمل مسيرتي التعليمية.

كان لطيفًا معي فقد ساعدني كثيراً لما رآني كالتائه في الصحراء يبحث عن الماء، ولكن دون جدوى رغم الجهد والعناء.

فقد كانت كليتنا كبيرة، وذات طوابق عديدة، وممرات كثيرة متشابهة، ومتطابقة، وكأنها منسوخة. فكلما أذهب إلى مكان لأتمم مراحل التسجيل أجد نفسي عدت إلى ذات المكان الذي كنت فيه وكأنها دائرة أو متاهة.

قال لي:

- لا عليك. سوف أبقى معك، وأدلك على كل الأماكن، فلقد أصابني الذي تمر به لما قدمت لأسجل في الكلية.

ومضت الأيام وها هو اليوم يطرق على باب غرفتي في السكن الجامعي.

- أهلا بالصديق. تفضل.

أخبرني أنه يريد أن أساعده في مادة اللغة الأجنبية فقد تقدم إلى امتحانها ست مرات وهو عازم على أن يتخلص من همها المرافق له. في هذه المرة، فإن كانت الثالثة ثابتة، فإن السابعة هي الناجعة.

ولحسن حظه، أنها بهذا العام ستكون مؤتمتة؛ مما يسهل عليه الأمر. أطلعته

على المحاضرات وعلى الأمور المهمَّة وعلى العديد من الأشياء المتوقع أن تأتينا، ثم أعلمته أنه في المواد المؤتمتة أغلب الاحتمالات تكون سي و دي.

فعليك أن تجيب بداية عن الأسئلة التي تعرفها، ثم ضع باقي الأجوبة كما أخبرتك وتوكل على الله.

فلقد وعدتنا تلك- حديثة التخرج- أن يكون الامتحان سهلًا؛ والتي تخطت نسبة حضورنا في حصصها ضعف عدد دفعتنا. فقد كان هناك العديد من طلاب السنوات المتقدمة يحضرون معنا كي يتأملوا جمالها، وروعة ابتسامتها، فقد كان عمرها متقاربًا مع أعمارهم.

ولا أخفيك- يا أحمد- أني كنت مرة أمشي في أحد الممرات فرأيت فتاة أنيقة الثياب، رشيقة القوام، عميقة العينين ، طويلة الأهداب؛ فقلت متغزلًا دون شعور: وجهك البدر، وعيناك البحر، وخدك الزهر، وبسمتك السحر الذي سيقتلني.

لكنها لم تعرني انتباهًا ومضت في طريقها.

وبعد قليل، ذهبت إلى المدرج. وما إن دخلت الباب فإذا بتلك الحسناء معلمتنا الجديدة في اللغة الأجنبية.

حاولت التراجع والانسحاب وأنا أنظر إليها من طرف خفي؛ فإذا بها تخرج سماعات الهاتف من أذنيها. فتنهدت وهدأ روعي فهي لم تسمع كلامي.

أتى موعد الامتحان وكانت الأسئلة في منتهى السهولة؛ عنوانها الرئيسي: إذا كانت العبارة، صحيحة ضع الاحتمال (A).

وإن كانت خاطئة ضع الاحتمال (B).

أنهيت الامتحان، وخرجت لأرى أحمد وأطمئن عليه فوجدته والبسمة تعلوه.

- كيف كان امتحانك، يا صديقي؟

صدق أو لا تصدق لم أنظر إلى ورقة الأسئلة إلا لأعرف عددها ثم نوعت إجاباتي بين سي ودي.

صرخت بأعلى صوتي: لاااااا

قال: ما بك. قلت له: لا يوجد إلا احتمالين.

فسقط مغشيا عليه.

وما هي إلا ساعة وصدرت العلامات، وعليه أن يدفع مبلغ خمس مائة ليرة بدلًا من ورقة الامتحان فهذه عقوبة الصفر في الامتحانات.

ومضت السنين وتخرجت ولا أدري هل تخرج صديقي أحمد أم أنه ما يزال يقدِّم إلى مادة اللغة الأجنبية.

ربتني أمي

إنها أيامي الأولى في المدرسة، وما أجملها من أيام. تعرفت بها على الكثير من الأصدقاء، نلعب، ونلهو، ونمرح. ربما لم أشعر بتلك السعادة من قبل؛ فأنا وحيد لأهلي، وأمضينا أربع سنوات ببلاد الغربة لم أر فيها طفلًا مثلي إلا فيما ندر. أرجع إلى البيت وكلّي نشوة وسرور أحكي لأمي كل شيء حدث معي وكيف لعبنا، وماذا تعلمنا، فأرى البسمة تشرِق بوجهها كانت تحب الاستماع إلى كلامي كثيرًا وكأنه أغنية تطرب لها. أصبحت في الصف الثالث والتفوق يلازمني، ومحبة أصدقائي تزداد يومًا بعد يوم. عدت الى البيت وأنا أفكر كيف سأخبر أمي بما حدث هذا اليوم، وكيف سقط صديقي أسعد في إحدى برك الماء وهو يلاحقني فاتسخت ثيابه، وأصاب الماء المتسخ ثياب معلمة التاريخ للصف السادس- أقسى معلمة بالكرة الأرضية-، فصرخت به وضربته وانصرفت. نظرنا إلى أسعد فضحك وقال: لم يؤلمني ضربها فأنا متعود. فضحكنا بأعلى صوتنا. نظرت إلينا المعلمة فأخفضنا رؤوسنا لكي لا ترانا ثم هربنا بعيدًا عنها. ستضحك أمي كثيرًا عند سماعها لما جرى. وصلت باب بيتنا؛ فإذا به مفتح على غير العادة دخلت فرأيت أمي وعماتي وخالاتي والصراخ يملأ أركان بيتنا.

- ما بك يا أمي لم تبكين؟

فانفجرت بكاء، فأخذتني جارتنا إلى صدرها وقالت لي: إن أباك قد مات.

كالصاعقة نزل علي الخبر، وبسرعة البرق أصبحت في حضن أمي:

- أحقًّا أن أبي قد مات؟

فأومأت برأسها أن نعم وحضنتني، ودموعي بللت ثيابي. لقد مات أبي بحادث أليم وهو ذاهب إلى عمله. يا الله، كيف ذاك وما أسرع الموت يخطفنا دون سابق إنذار. فاليوم صباحًا أخبرته أني سوف أغلبه في اللعبة كما يوم الأمس؛ فقال:

- لن تغلبني اليوم أبدًا.

حقًّا كان ذاك الجواب؛ فأين أراه لأغلبه؟ يا الله، ما أقساها من لحظات سترافقنا العمر كله، ما أقساها أن يفقد المرء سنده وهو ما يزال يافعًا صغيرًا يحلم بأن يكبر، ويصبح فخرًا لأبيه يباهي به أمام الناس. ابني قال كذا؛ وابني فعل كذا؛ وابني عمل كذا، وكأنه ليس هناك بالكون أحد غير ابنه يتحدث عنه.....

تردَّت حالتنا المعيشية كثيرًا بعد أن كنا أغنياء. فأصبحت أمي تعمل خادمة في البيوت، لتؤمن ما نحتاجه فلا تكسر نفسها لأحد، ولا تنتظر شفقة أحد أو إحسانه؛ فكم هم كثيرون الذين يعطون ثم يمنّون عليك، وكأن المال منهم لا من الله؛ وهو يسَّره لهم. وإذا شاء ينزعه منهم بطرفة عين.

أقف ساعات طويلة عند باب بيتنا منتظرًا عودة أمي من عملها، وآه من كلام الناس عندما يمرون بجانبي يتهامسون ثم ينظرون إليَّ نظرة استهزاء، ويضحكون بسخرية. فثيابي أصبحت رثة ممزقة أو لم يسمع أولئك بحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وقد أشار بالسبابة والوسطى:

."أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة"

عندما أراها أركض نحوها فتحملني وتبتسم، وتنزل الدمعات من عينيها وتقول:

- سامحني، يا ابني، لقد تأخرت عليك.

تعتذر مني وهي التي تضحي بشبابها ووقتها من أجلي. فكم تسمع من كلام جارح وإهانات في عملها وتصبر وتتحمل من أجلي.

بدأ الأصدقاء ينفرون مني، ويتعمدون عدم اللعب معي أو التحدث. وكلما أقترب من أحدهم يصطنع ألف عذر ليتجنبني، وساءت معاملتهم لي. فتارة يسخرون، وتارة أخرى يسمعونَني كلامًا جارحًا كضربة السيف في الجو البارد. ولست أدري لم أصبحوا هكذا؟ ألأني أصبحت فقيرا معدما، أم لأني يتيم مكسور الجناح؟ إلا صديقي أسعد فهو يتيم مثلي يحس بحالي وحقًّا كما قال الشاعر:

لا تشك للناس جرحًا أنت صاحبه.... لا يؤلم الجرح إلا من به ألم.

ذات مرة، سألتنا المعلمة سؤالًا صعبًا لم يعرف جوابه أحد غيري. رفعت يدي وأجبت عنه، فرأيت الغضب والغيرة بعيون أصدقائي. لكن لم أبالِ بهم. في اليوم التالي صرخ أحدهم: لقد فقدت دفتري. قالت له المعلمة: لعلك نسيت أن تحضره معك. فأجابها إني على يقين بأني أحضرته. وصرخ الأصدقاء معًا: نعم، لقد رأيناه في الحصة السابقة. بدأت المعلمة بتفتيش الحقائب، وكانت الطامة الكبرى عندما أخرجته من حقيبتي.

بصوت واحد: يا لك من لص سارق.

فانتفض أسعد وقال: من المستحيل هذا. لقد كنت معه طوال الوقت وسمعته الطيبة تسبقه في كل مكان.

صاحوا به: وكأنك شريكه في هذه السرقة.

فالتزم الصمت فهو مكروه من قِبل الجميع وطالب كسول لا يؤبه لكلامه. إلا أنه في الأخلاق أفضل من رأيت في حياتي. فضربتني المعلمة ضربًا شديدًا، وأنا أبكي بحرقة فهي المرة الأولى التي أضرب بها، وقسوة الظلم خالطته وما أصعبه

من مزيج! ثم أخذتني إلى المدير فأفرغ غضبه عليَّ وضربني بقسوة، وكأني قاتل أبيه. وجاءت لحظة الانتقام، ثم طردني من المدرسة لا ترجع غدًا إلا وأمك معك فلبئس التربية تربيتك، ويا لقبح أخلاقك وتصرفاتك. جلست في الشارع والدموع غطتني وليس بفكري إلا الحزن الذي ستكابده أمي عندما أحكي لها ما جرى.....

ما أن لاحت أمي حتى أسرعت نحوها، وارتميت بحضنها، فأخذت تمسح دموعي:

- ما بك، يا بني، عساه خير؟

فقصصت عليها ما جرى، فقبلتني، وقالت:

- لا عليك. لقد ربيتك أحسن تربية وكل من يعرفك يشهد بذلك.

اتصلت بصاحبة البيت الذي تعمل فيه لتطلب إجازة ليوم الغد؛ فأجابتها بغلظة أن عليها القدوم فعندها وليمة كبيرة. شرحت لها أمي السبب فازدات رفضًا:

- أيسود وجهي أمام ضيوفي من أجل ابنك؟

ردت عليها أمي: إن ابني أغلى ما عندي، فإن لم أذهب معه سترافقه التهمة طوال عمره.

قالت صاحبة المنزل: إذن، لا عمل لك عندنا. وأغلقت سماعة الهاتف بوجه أمي. نظرت إلي وربتت بيدها على كتفي:

- لا تقلق، يا بني، فالرزق من الله، وحسبي الله ونعم الوكيل. سيؤتينا الله من فضله. فهاجر كانت مع ابنها الصغير إسماعيل وحيدين في الفلاة، وأصابهما العطش الشديد وسط صحراء تلتهب رمالها من الحر. تذهب إلى الصفا فيلوح لها سراب من الماء من جانب المروة فتذهب، فيلوح الماء من جانب الصفا، وفي كل

مرة لا تجد شيئًا، ولكنها لم تقنط من رحمة الله التي وسعت إلى أن فجر الله ماء زمزم في المرة السابعة. فالصبر وحسن الظن بالله يفتح كل باب مغلق.

كالبلسم كلماتها يشفي العليل، وأعذب الألحان همساتها، والكون يشرق من عينيها اذا جلاها اليقين. أحسست بأني قادر على أن أقتلع جبلًا من مكانه، وأني مستعد لمواجهة جميع من في المدرسة بثبات وعزيمة دون خوف أو وجل.

في اليوم التالي، بينما نحن في طريقنا إلى المدرسة رأيت سيارة يريد صاحبها الرجوع إلى الخلف ووراءه طفلة صغيرة وهما غير منتبهين. ركضت مسرعًا وأنا ألوِّح له أن توقف. وحمدا لله أن رآني باللحظة الأخيرة، حملت الطفلة فنزل من سيارته ودموعه تسبقه وحضنها بحنان فهي طفلته الوحيدة التي جاءته بعد عشر سنوات من زواجه. ظل يشكرني على هذا، وأنا أردد أنه واجبي، وأي شخص مكاني كان سيفعله، والحمد لله أن وفقني لأراها قبل أن تدهسها. سأل أمي: من أنتم لأجازيكم على معروفكم؟

لكن أمي أعلمته أن شكره لنا وافانا حقنا وتابعنا المشي، لكنه تبعنا وقال:

- لن أفارقكم حتى أردَّ لكم الجميل.

وبدأ يتوسل ويرتل الأيمان واحدًا تلو الآخر؛ فأخبرته بمن نكون وحكت له ما جرى معي بالمدرسة. فقال:

- والله وإنه لقسم ما له من كفارة أن مصروفكم وكامل احتياجاتكم من مسؤوليتي بدءًا من هذا اليوم وإلى أن يكبر ابنك ويحقق أمنيته في دراسته.

فرفضت أمي هذا، فأصر عليها وبات يترجاها أن ترضى، فقبلت أمي شرط أن يكون ذاك دينًا وأوفيه إياه عندما أكبر. فكان ذاك هو الاتفاق بيننا. ومضينا بطريقنا فقالت أمي:

- أرأيت فضل الله وكيف يسوق الله الأقدار، تركنا عملًا فرزقنا الله خيراً منه أضعافًا مضاعفة كثيرة.

دخلنا من باب المدرسة؛ فإذا المدير واقف في الساحة كأنه ينتظرنا. ارتجفت كل أعضائي، وبات قلبي كأنه بلغ حنجرتي. وضعت أمي يدها على رأسي، فعادت لي قواي فمشيت نحوه ورأسي مرفوع شامخ، وخطواتي متزنة تكاد تنشق الأرض من شدة وقوعها عليها. فلا شيء يصمد أمام الصدق، وحسن اليقين بالله، والتوكل عليه، وتفويض الأمر إليه.....

ألقت أمي التحية على المدير فرد السلام وابتسم، وقال:

- نعتذر منك أن جعلناك تأتي إلى هنا، فقد اعترف الطلاب بمكرهم، وكيدهم، وخطتهم لإيذاء ابنك، وأنهم نادمون على فعلتهم ويطلبون الصفح منكم، وإلا لأعاقبنهم عقابًا شديدًا نكالًا بما صنعوه.

همست أمي في أذني: يابني افعل ما ربيتك عليه. واستأذنت المدير وانصرفت.

دخلت إلى الصف فأحاطني أصدقائي من كل مكان:

- سامحنا.. اعف عنا.. اصفح عنا.. تجاوز عنا..

أعلمتهم أني قد سامحتهم فهم أحبتي، وسعادتي بوجودي معهم، فغمرتنا فرحة عظيمة.

وها هي الأيام تتعاقب مسرعة، فقد أصبحت في الصف الثالث الثانوي، ثم تجاوزت الامتحان وحصلت على المرتبة الأولى. الأمر الذي أمكنني من الحصول على منحة مجانية للدخول في إحدى الجامعات الخاصة مما يخفف من العبء المحمول على عاتقي عندما أبدأ بالعمل.

والفضل لله فقد صب علي المال صبًّا كغيث غزير. سددت الدين كله، فقد كان

كالجبل جاثمًا على صدري مذ كنت في الصف الثالث، واشتريت بيتًا جميلًا، وسيارة رائعة. وبينما أنا في الطريق، اتصلت بي أمي وأخبرتني بأنها متعبة جدًّا، فأسرعت إليها وشرد ذهني قليلًا، وأنا أفكر بها. ولست أدري كيف لمحتُ طيف فتاة تمر أمامي، فدعست على مكابح السيارة بسرعة فتوقفت، وقد بات بينها وبين الفتاة مسافة شعرة لكنها من خوفها وهول المشهد صاحت وسقطت الأكياس التي تحملها من يديها. نزلت وبدأت أحمل الأكياس من الأرض وأنا أعتذر منها، لكنها لم تتفوه بشيء حتى ظننتها خرساء. نظرت إليها فأطرقت رأسها حياء، كأنها البدر في ليلة مظلمة. ناولتها الأكياس ومضت في طريقها لا أدري ما الذي أحسسته حينها أو ما الذي وقع في قلبي؛ فكرت بأن أتبعها لأعرف من تكون فقد أعجبني حسنها، وسمتها، وحياؤها، ولكن أمي مريضة فتركتها وتابعت طريقي، فإنها أغلى ما لديَّ؛ فكم ضحَّت وعانت وكابدت وسهرت من ليالٍ لا تنام تحرسني وترعاني.

تعافت أمي وعادت إليها صحتها وأخبرتها عن تلك الفتاة وكيف السبيل لرؤيتها ثانية في هذه المدينة التي وصل عدد سكانها لألف ألف شخص ومساحتها كبيرة جدًّا. فقالت لي:

- يا بني، إن كانت لك فسييسر الله لك سبيل معرفتها، اترك الأمر لله فكما أن برَّك لي منعَك من معرفتها، كذاك كن على يقين أن الله سيرزقك بها أو يعوضك خيرا منها. فبر الوالدين لا يأتي إلا بخير.

وبعد مضي عدة شهور رأيت رجلا مسنًّا يتوكأ على عكازه يريد أن يعبر الطريق، فأتيته وأمسكت بيده. وبينما نحن في منتصف المسافة رأيت تلك الفتاة من فرحتي كدت أن أرمي الرجل العجوز أرضًا وأركض نحوها، لكني تمالكت زمام أمري أمشي معه وعيناي على تلك الفتاة تارة وعلى حافة الطريق تارة أخرى. كم صارت بعيدة وكأنها أميال لا عدة أذرع. ثم نظرت إليها فلم أجدها. التفت

يمينًا وشمالًا ولكن لا شيء وكأنها من الجان. بدأ الحزن يتغلغل إلى أعماق فؤادي، لكني تذكرت كلام أمي إن كانت لك ستأتيك، أو يعوضك الله خيرًا منها. في كل المواقف والمصاعب يكون كلام أمي هو المنقذ لي أو الدافع لي لأتابع مسيرتي في هذه الحياة.....

أخبرت أمي أني رأيتها ثانية، ولكن كالمرة السابقة لم أستطع اللحاق بها ومعرفة من تكون.

فقالت:

- يا بني، إني أريد أن أخطب لك فتاة جميلة، خلوقًا. لطالما كانت تأتي لعندي- وأنت في العاصمة تسعى بطلب العلم- تساعدني في أعمال البيت، وتؤنسني في وحدتي، وتردد دائمًا: مهما أفعلْ، يا خالتي، فلن أوفيكم معروفكم بإنقاذكم لحياتي عندما كاد أبي أن يدهسني. فلا تدرون الألم الذي سيعانيه أبي، أو عذاب الضمير الذي لن يبرح يفارق خياله طرفة عين.

يا بني، إنها- والله- لنعم التربية تربيتها، وإنني على يقين أنك ستكون سعيدًا معها بإذن الله. فقلب الأم لا يخطئ إحساسه أبدًا.

- يا أمي، ولكن قلبي شغف بالفتاة التي رأيتها.

- يا بني، ما يدريك أنك ستراها من جديد، أو أنها ستكون زوجك، فتمضي عمرك بالتفكير فيها، ويفنى شبابك وأنت رهين الانتظار.

توكل على الله، ولنذهب لخطبتها. وأرجو من الله أن يكون الخير بها ومعها، فأعظم أمنية للأم أن تزوج ابنها فتفرح به.

ولا أخفيك أن أمها تكلمت معي اليوم وشعرت بأنهم يريدونك زوجًا لابنتهم. وليس معيبًا أن يخطب الأهل لابنتهم ممن يرونه أهلًا لذلك، فكم يضحي الآباء

لتربية أولادهم ذكورًا أو إناثًا، ويفنون عمرهم لأجلهم، فتكبر البنت أمام أعينهم ثم يأتي من يتزوجها فلا يكرمها، ولا يرعى حقوقها، بل يظلمها، ويهينها، ويضربها، فينفطر قلب الأهل عليها. فكم من ليالٍ لم أغمض فيها عينيَّ، ولم يفارقني البكاء، وقد شاكتك شوكة فكيف بكل ذاك ولو كان عندي ابنة لفعلت مثلهم.

جلست في غرفتي أفكر بالأمر ثم دعوت الله بصدق أن يلهمني، ويرشدني إلى حسن الاختيار.

تحدثت مع صديقي أسعد بهذا الشأن فقال:

- إن كانت تلك الفتاة بها من الوصف والأخلاق ما تحمد عليه فلا أرى ضيرًا أن تذهب مع والدتك، وتنظر إليها فلعلها تعجبك.

- نعم يا أسعد إنه قول حسن، ولنعم الرأي رأيك. وإني أحب أن أبقى بارًّا لأمي وألا أعصي لها أمرًا. فقد رأيت مدى السعادة في عينيها وهي تتحدث معي لتخطبها لي. أأجعلها تحزن؟!، أم أرفض لها أول شيء طلبته مني؟

وبينما نحن في الطريق تعمدت أن أطيل المسافة وأن أسلك أغلب الطرق في مدينتنا. ومررت بالمكانين الذين رأيت فيهما تلك الفتاة التي أعجبتني. التفت يمينًا وشمالًا علني أراها. لاح طيف فتاة فكأنها هي، نعم والله إنها هي أوشكت أن أقول لأمي: انظري؛ إنها تلك الفتاة لكن لما باتت بيننا مسافة قصيرة بانت بوضوح بأنها فتاة أخرى. يا لخيبتي، بعد كل هذا الأمل.

دخلنا وألقينا السلام. وبدأ الحديث يدور حول قدر الله كيف أنقذت ابنتهم، وكيف مضت السنين وها نحن اليوم أتينا لنخطبها لي. زاد ارتباكي، وكأني حوصرت فأين المفر؟ فبعد قليل سأراها، وإن لم تعجبني كيف سأرفضها؟ بعد كل هذا الكلام، وقد لمست لهفتهم، ومدى سعادتهم بأن أكون زوجًا لابنتهم الوحيدة. وما هي إلا لحظات وإذ بالفتاة دخلت وألقت السلام بصوت مرتجف خائف. قد

تكون مرتبكة متوترة، أما عني فإن قلبي بات أن يتمزق، وصدري كاد أن يختنق، ما أصعبها من لحظة!

تماسكت، وتشجعت، ثم نظرت بطرف خفي لأراها فإذا بها هي نفسها تلك الفتاة التي أعجبتني؛ فخررت ساجدًا لله شكرًا، وحمدًا، والدموع تغمرني، أن وفقني الله لطاعة أمي والبر بها، ورزقني بتلك الفتاة دون جهد أو عناء.

ماذا سرقنا؟

قريتنا آية من آيات الروعة والجمال، لها سحر يسلب الألباب، ويخطف العقول؛ فهي تتربع على سهل واسع وحولها بساتين الأشجار؛ ومن ناحية الشمال سلسلة جبال كساها الزعتر البري حلة خضراء فكأنها السندس؛ ومن جانبها الآخر يمر نهر صغير يطيب الجلوس على ضفته فهي جنة لاحت بأبهى صورة.

في أحد أيام الربيع الجميلة، جلست مع أصدقائي عند النهر، وصوت خرير الماء يترنم بأحلى الألحان، والعصافير تغرد بأعذب الأصوات.

قلت لأصدقائي:

- ما أجمل الشواء هنا في هذا الجو البديع، فتختلط رائحة الشواء مع النسمات العليلة التي تداعب خصلات الماء وهي في طريقها إلينا.

فاقترح أحدهم:

- ما رأيكم أن نشن غارة في الليل على بيت أبي نادر، ونأخذ خروفًا من عنده نذبحه ونشويه، فإن كلبه مريض لا يقوى على المطاردة ولا حتى على العواء. فبالأمس رآني أبو نادر، وأخبرني أنه يبحث عن كلب جديد كي يحرس له أغنامه. نعم إنها فكرة جيدة.

تسللنا في الليل ودخلنا بيت أبي نادر، جسمي كان يرتجف من الخوف، وأوصالي ترتعش، وكأنك سكبت عليَّ ماء باردًا في جو عاصف.

أتقدم خطوة إلى الأمام، ثم أتوقف وألتفت يمينًا وشمالًا؛ فطيف أبي نادر بات يخبَّل إلي وكأنه حاملا عصاه يريد أن يشج بها رأسي. كدت أن أصرخ عاليا لكني وضعت يدي على فمي فإنها أوهام وتخيلات يوحيها إلي خوفي.

وصلنا الزريبة وفتحنا الباب بهدوء وحذر شديدين،

حملنا خروفًا سمينًا مكتنزًا باللحم. وبسرعة كالبرق الخاطف انسحبنا إلى أحد البساتين وذبحنا الخروف وسلخناه وقطعناه لكي يسهل حمله إلى النهر.

وعند اشتداد الشمس جمعنا الحطب، وأشعلنا النار، وبدأنا بالعمل. كان طعمه لذيذًا وشهيًّا أكلنا حتى انتفخنا وزاد أكثر من نصفه فرميناه في النهر حتى لا يرى أحد أي أثر فيفتضح أمرنا.

رجعت إلى البيت والشمس تلاعبني فتحجبها الأغضان تارة وتظهرها تارة أخرى، وكأنها عاشقة لي تتبع خطواتي. فإذا رمقتها بعينَيَّ خجلت واختبأت، وإذا غضضت طرفي بانت فترسل منها حبالًا تداعب وجنتي.

رأيت أبي حزينًا ويتكلم مع نفسه، فكأن به مس أو أصابه ضرب من أنواع الجنون.

قلت: ما بك، يا أبي؟

- لقد سرق خروفي الذي أودعته عند أبي نادر. وكما تعلم أنني استدنت ثمنه لكي أربيه فأذبحه قربانا عن روح جدك في عيد الأضحى.

ارتبكت وضاعت مني الكلمات، فما عدت أعرف ماذا أصنع أو ما الذي أقوله.

- لا تبتئس، يا أبتي. إنه مال حلال وسيرجع بإذن الله.

ذهبت مسرعًا وجمعت أصدقائي، وأخبرتهم بالأمر. وقررنا أن نتقاسم ثمن

الخروف ثم وضعناه في كيس ووضعنا معه ورقة نطلب الصفح من شناعة فعلنا وأننا نادمون على ما صنعناه.

قال أحدهم: أونترك أبا نادر يهزأ بنا؟ لقد رمينا نصف الخروف بالنهر، وتعبنا بحمله، ثم دفعنا ثمنه كاملًا. لا بد أن نعيد الكرة مرة أخرى.

وكأننا جميعنا كنا نريد اقتراح الذي أشار علينا به. فذهبنا إلى بيت أبي نادر ونحن عازمون على أخذ خروف صغير فهو أسهل بالحمل، وأيسر بالسلخ، والتقطيع، وأقل إسرافًا إذا عزمنا على رمي الذي سيزيد منه. حملنا واحدًا وما هي إلا لحظات فأصبحنا بالبستان المجاور. ذبحناه، وسلخناه، وذهبنا إلى النهر، والليل ما يزال مظلمًا وكأنني غطيت وجهي بقطعة قماش سوداء فلست أرى يدي إلا إذا لامست عينَيَّ.

رمى أحدهم الكيس الذي فيه الرأس، والأطراف، والجلد، في النهر.

هرعنا إلى النوم كي نرتاح قليلًا فأمامنا يوم من العمل واللهو والمتعة.

كان الطعم شهيًّا جدًّا إنه ألذ من المرة الماضية.

- ألم أقل لكم أن الوزن الأقل، والعمر الأصغر، يكون لحمه أطيب؟

ثم تناولنا الشاي المحضر على الحطب، وسبحنا. حقًّا إنه يوم رائع.

وفي المساء، ما إن دخلنا القرية، قابلنا أخي الصغير وهو لا يكاد يمسك نفسه من كثرة الضحك فقلنا له:

- أضحك الله سنك أضحكنا معك.

فأخبرنا أنه في ليلة الأمس، رجع السارق إلى بيت أبي نادر وسرق الكلب.

نظرنا إلى بعضنا ثم شعرنا أن أمعاءنا تريد أن تتقطع بعد الذي سمعناه. ومن حينها أقلعنا عن السرقة، وتبنا إلى الله، سبحانه وتعالى، ولكننا لم نخبر أحدًا بأننا أكلنا ذلك الكلب.

زواج بلا مهر

أشعة الشمس قوية. ما الخبر؟!

فليس لها بالعادة أن تشرق بتلك الدرجة العالية.

هل فتح علينا باب من جهنم؟! أم اقتربت الشمس منا فأصبحت على بعد ميل؟

نظرت إلى ساعتي فإذا هي الثانية عشر ظهرًا.

يا الله! تأخرت كثيرًا في نومي وعليَّ الإسراع كي لا تفوتني حصة وظائف الأعضاء العملية. فلقد أصبح عندي أربعة غيابات؛ وغياب خامس يعني الحرمان من التقدم لامتحان هذه المادة بشقيها النظري والعملي.

خرجت مسرعًا وسلكت طريقا مختصرًا. وفجأة، رأيت صديقي عابدًا واقفًا أمام باب المسجد. سلمت عليه وقلت له: ماذا تفعل هنا؟. فقال:

- أنتظر أذان الظهر كي أصلي في المسجد، فليس لي اليوم مزاج للذهاب إلى الكلية.

- حسنًا، أراك فيما بعد.

ومضيت بطريقي...

ولكن الشك توغل إلى أعماق قلبي. أيعقل أنه ينتظر الأذان ليصلي جماعة؟! وهو تارك للصلاة! بل ربما لا يعرف كم عدد ركعات صلاة الظهر!

سلكت طرقًا فرعية إلى أن وصلت إلى نهاية الطريق المطل على المسجد، واختبئت خلف شجرة أراقب بها عابدًا. ولتفوتني حصة العملي ولأحرم من تقديمها هذا العام. المهم أن أعرف ما الخبر وراء عابد ووقوفه المريب هناك. أذَّن للظهر وأقيمت الصلاة. وما يزال واقفًا لا يحرك ساكنًا. وما هي إلا لحظات، وإذا بالشموس نزلت من السماء، وباتت تتهادى في مشيها.

أحسِنْ بها من مشية!

وأحسِنْ بجمالهن! سبحان الذي أبدع وصور!

مرت فتاة بجانبه نظرت إليه نظرة سريعة وتابعت مسيرها، فتبعها، وتبعتهم بدون أن ينتبه أحد لي.

دخلت الفتاة إلى بيتها وأغلقت الباب، ووقف عابد أمام الباب ولسان حاله يقول:

وأمرُّ ما لقيتُ من ألَم الجوى

قرب الحبيب وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما

والماء فوق ظهورها محمول

كانت ظنوني بمكانها.

اقتربت منه بهدوء ووضعت يدي على كتفه: وصرخت بأعلى صوتي:

- ماذا تفعل هنا، يا هذا؟

فقفز من خوفه حتى كاد أن يلامس شريط الكهرباء.

نظر إلى الخلف فرآني ويكأن الروح عادت إليه، وأخذ يتلمس قلبه هل ما يزال ينبض.

- أرعبتني يا رجل أصلحك الله.

فسألته:

ماذا أخبرتني منذ قليل: أنك تريد الصلاة، أم- الوصال، يبدو أني لم أسمعك جيدًا.

فتبسم وحكا لي قصته مع تلك الفتاة، وأن أباه يعارض فكرة خطبتها له فإنه لا يزال طالبًا، والطريق أمامه طويل لينهي دراسته، ويؤمن عملًا له يكون عونًا له في حياته.

اقترحت عليه أن أقنع والده بالموافقة على ذلك.

فقال: يا ليت هذا يحدث، فإنه مطلبي، وغايتي.

طرقت باب بيتهم مساء، ومعي ثلة من الأصحاب.

قدموا لنا القهوة فوضعناها على الطاولة؛ فأومأ أبو عابد أن اشربوا القهوة:

- ما بكم؟

- لقد أتيناك بحاجة ونرجو منك ألا تخيبنا.

فقال: اشربوا قهوتكم ولكم سؤلكم ومبتغاكم، بإذن الله.

- ياعمي، إن ابنك يريد أن يخطب فتاة وإنه ينتظرها كل يوم الساعات الطوال كي يراها، ثم يتبعها إلى البيت، وأهل الحي شكوا بأمره، واجتمعوا عليه، وكادوا أن يقتلوه؛ ثم يمضي بقية يومه شارد الذهن، غارقًا بالتفكير بها.

وجه عابد لم يعد يفسر، وأصبح يتلوَّن فمرة أصفر، ومرة أحمر، ومرة أسود... غمزني لكي أصمت ولسان حاله يقول: فضحت أمري، وكشفت سري، فكأنك لاتريدني أن أنام في بيتنا هذه الليلة.

لكني لم ألتفت له وتابعت: يا عمي، أيرضيك حاله هكذا؟ أم تخطبها له؟ أو لربما يصل به الأمر إلى الجنون، أو الانتحار، أو على أقل تقدير يرسب في الامتحانات؛ إلى أن يستنفد ويفصل من الجامعة فيصبح هو وحامل شهادة الصف السادس الابتدائي سيان.

وبعد إلحاح شديد منا وتوسلات ورجاء، وافق على طلبنا واستئذن وانصرف.

فرح عابد فرحة لا توصف ولا تقدر بثمن.

- اقرصوني، يا شباب، لأتأكد أني لست بحلم.

ثم سألني بأن أطلب ما أريد جزاءً لي على فِعلي.

فقلت له: أريد أن تزوجني ابنتك بدون مهر؛ فوافق واشهدوا، يا رفاق.

دارت الأيام وتزوج عابد. وبعد فترة، حملت زوجته؛ فلما وضعت أخبرني بأنه قد أتاه أحمد.

باركت له به، ثم حملت زوجته مرة ثانية وأنجبت محمودًا، ومرة ثالثة فأتى محمد، ثم جاء بالمرة الرابعة حامد،

وفي الخامسة حمدان، ولما حان وقت ولادة الولد السادس اتصلت به وقلت: هل أقبلت المولودة الموعودة، يا أبا أحمد؟.

فقال: لا، بل أتى حمدي. وأيم الله، إنها لآخر مرة نفكر بها بالإنجاب؛ فلو حملت امرأتي مئة مرة فلن تنحب إلا الذكور، فلبئس الحظ حظك.

- نعم، إنك محق بهذا، ياصديقي، فحظي أسود في كل شيء، إلّا بالبطيخ فإنه أبيض.

نوافذ

إنه اليوم الأول لهم في هذه البناية،

فمنذ ساعات الصباح الباكر قدموا ومعهم أغراضهم، وأثاث بيتهم ليسكنوا هنا.

لما رأيتهم سلمت عليهم، وساعدتهم في العمل، وترتيب البيت.

وقع نظري على حين غرة على شمس كادت أن تذهب ببصري من شدة نورها. إنها ابنتهم، ولقد شعرت بأني أرنو إليها، فابتسمت لما توافقت عيناي مع عينيها، ثم أدارت وجهها حياء. لا أدري ما الشعور الذي انتابني، أو ما الذي أحسسته. غير أني ما عدت أفكر إلا بها.

تتوالى الأيام... أنتظرها صباح كل يوم كي أراها وهي ذاهبة إلى المدرسة. حتى باتت تبادلني المشاعر ذاتها.

ما عدت أصبر ساعة دون رؤيتها.

وصرت أتحين كل فرصة لأراها.

فها هو والدها وافي وبيديه يحمل بعض الأشياء؛ أسرعت نحوه وحملتها عنه. فهو رجل كبير في السن، ويشق عليه حملها إلى الطابق الرابع حيث يسكن. شكرني عند وصولنا إلى باب بيتهم؛ فأجبته بصوت مرتفع، علها تسمعني فتفتح الباب، لأرى ذاك الملاك في أبهى صورة، وأجمل حلة:

- إنه واجبي، يا عماه.

لحسن الحظ أنه يوجد في بنايتنا حديقة تتخللها بعض الأشجار، والأزهار. ولغرفتهم شرفة تطل عليها فأجلس على العشب بعد منتصف الليل، وبيدي دفتري أدوِّن به تلك اللحظات، فأراها تطل من شرفتها كالبدر. فكأنني الأرض وهي قمري الوحيد.

نتبادل النظرات الطوال. وإنه لحديث يصعب شرحه، وشعور يعجز فصيح بيان عن وصفه.

هكذا في كل ليلة...أنتظرها بفارغ الصبر.

كان التواصل بيننا عبارة عن نظرات، وهمسات، وإشارات، وبعض الرسائل المعطرة بالأشواق.

واليوم كل شيء أصبح سهلًا؛ فبإمكانك وأنت قاعد في غرفتك أن تكلم من تحب، وتسمع صوته، وتراه.

دونما أن يراك أحد.

ودون العناء الذي كنت أكابده في ليالي الشتاء القارسة.

نعم كل شيء أصبح متاحًا...

ولكن الحبيبة لم تعد موجودة.

المنع لحكمة

جلست على أحد المقاعد بالحديقة، والحزن يعتريني من هول ما أصابني قبل قليل. وإذا بصديقي سالم يسلِّم علي ويقول لي:

- ما لي أراك حزينًا كما لو أن مصائب الدنيا صُبَّت عليك دفعة واحدة.

أخبرته أني أوشكت على بلوغ المرام، فقد صار بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى. ولكن، يا خيبة، ما تأمَّلته ورجوته.

- يارفيقي، لا تيأس. وقل عساه أن يكون خيرًا.

فلا تدري ربما يكون هذا الأمر شر لك فصرفه الله عنك؛ أو قد يكون الله خبأ لك الأجمل والأكمل؛ فإن الله قد يمنع عنك ما تريد ليعطيك ما تحتاج.

وقع كلامه بقلبي كالماء البارد على الظمأ، أو كالغيث نزل على أرض ميتة؛ فأحياها من جديد.

أمضينا نتحدث بضع ساعات، ثم هممت بالرجوع إلى البيت. وما إن أوشكت على الخروج من باب الحديقة؛ حتى لاحت لي تلك الفتاة جالسة مع شاب تضحك معه بصوت مرتفع، وكأنها تحقق لها حلم رسمته منذ سنوات. وكان ذلك الشاب يتحين الفرصة؛ ليلمس يديها دون أن تبدي أي رفض له، وكأنها تهوى الذي يهواه.

أدرت ظهري، وتابعت سيري، وأنا أحمد الله أن أظهرها لي على حقيقتها.

فإنها عندما ابتسمت لي؛ خلتها الكنز الذي ما زلت أبحث عنه، وأنها غاية السبيل، ومنتهى الآمال.

وإني لما اقتربت منها وتحدثت معها؛ فرفضت التكلم معي زاد إعجابي بها، رغم أن قلبي قد تحطم كالزجاج لأنها لم تكن تبتسم لي لما أدارت وجهها للخلف ورأتني.

ولربما هي المرة الأولى التي أسر بها من جارتنا العنيدة التي ما ترددت برفضي ألف مرة أو يزيد، وهي لا تزيد على كلمة هيهات هيهات. ربما ساقها القدر لأحرف مساري عن تلك الفتاة التي قد هممت ثم عزمت على أن أتبعها؛ لأعرف بيتها وأحاول التكلم معها مرة أخرى. فتحت باب بيتنا لأدخل، وإذا بابنة عمي تريد الخروج من عندنا، وقع نظري عليها.

يا رباه، لقد كبرت وأصبحت بمقتبل العمر، وبدت كالبدر في الليلة الظلماء، أو كشمس منيرة لاحت في كبد السماء.

وكأنني لم أرها منذ زمن سحيق.

ابتسمت وانصرفت، ولساني يردد حقا، يا رفيقي سالم، قد يمنع الله عنك ما تريد ليعطيك ما تحتاج.

ردُّ الدين

لم يغمض لها جفن منذ يومين، ودموعها ما فارقتها حتى صار يحسبها من يراها بئر زمزم لا تنضب، ولا تفنى. فقد تعرض زوجها لحادث أليم، وهو بحالة خطيرة، وقد تعطلت إحدى كليتيه، وتضررت الأخرى، ولكنها تحمد الله أن تطابقت أنسجتها مع أنسجته فما ترددت لحظة بالتبرع بإحدى كليتيها له. فهو زوجها، وحبيبها، وسندها، وأبو أولادها.

خرج الطبيب من غرفة العمليات؛ فأسرعت نحوه كالبرق الخاطف. فتسأله عن حاله؛ وأوصالها ترتجف بشدة كما لو لامسها تيار كهربائي.

وقلبها كاد أن ينخلع، أو ينفجر، وإن صوت ضرباته بات مسموعًا لمن حولها.

أخبرها الطبيب أن العملية قد تكللت بالنجاح، وأن زوجها أصبح بحالة جيدة، ويحتاج إلى بضع ساعات حتى يستعيد وعيه ويستيقظ.

انتظرت بفارغ الصبر، لكن الوقت أصبح طويلًا، كطريق لا ترى له نهاية، والثواني باتت تمشي كالسلحفاة. أخبرتها الممرضة أنه يسأل عنها؛ فذهبت مسرعة إليه. قبَّلت رأسه ويمينه، وقالت:

- يا ليته كان بي ولا بك يا نور عيني، وسندي في هذه الحياة، وفرحة عمري، فإني بدونك وردة ذابلة لا لون لها ولا رائحة ولا بريق. وإني بدونك كهشيم يابس تتربص به نار الحريق.

أجابها وعيناه اغرورقتا بالدموع:

- إن كنت أنا الأرض فأنت قمري الوحيد، وإن كنت أنا العين فأنت ضيائي. يا حبيبة القلب، أو لهذه الدرجة تحبينني؛ حتى تبرعت بإحدى كليتيك لي؟

فأجابته: إن لم أفدِك بروحي فمن؟! ولو لم يكتب لي أن تكون زوجي أفلا أرد لك الدين؟! فإنك قد أنقذت حياتي لما كاد أبي أن يدهسني بسيارته وأنا صغيرة، فإنني ممتنة لك بحياتي.

طبع قبلة على جبينها، وقال لها: بارك الله فيك، فإنك الخليلة الوفية. وإني لما أنقذتك وحملتك بيدي لا أدري ما كان شعوري حينها؛ فقد أحسست أني أعرفك منذ زمن بعيد، ربما لأن الله قد خلقك من ضلعي، يابصري، وسمعي.

اقتربت منه وهمست في أذنه: أريد البوح لك بشيء.

فأجابها بلهفة: ما هو؟

فقالت: عندما كنت أذهب إلى بيتكم لأساعد أمك، وأونس وحشتها، وأنت في العاصمة تسعى في طلب العلم، رأيت صورة لك لا أدري ماذا انتابني حينها.

ثم رأيتك في المنام وأخبرتني أنك قادم لتخطبني.

فدعوت الله وسألته أن تكون رؤيا حق. ثم مضت الأيام واجتمعنا لأول مرة بتقدير من الله- سبحانه وتعالى- لما كدت أن تصدمني بسيارتك، عرفتك حينها ولكني تابعت طريقي لأني موقنة أنك لو كنت لي ستأتي إلى بيتنا لتخطبني. وكذلك حدث لما رأيتني للمرة الثانية وأنت تساعد الرجل المسن وكيف آثرت مساعدته على اللحاق بي ومعرفة من أكون.

قصصت الأمر على والدتي، والتي تحدثت مع أبي بأمرك، فقال: إنه لن يجد أحسن منك زوجا لابنته الوحيدة.فتحدثت أمي مع أمك وألمحت لها بأن تخطبك

لي، وإني دعوت الله بقلب خاشع خاضع أن يجعلك ترضى بهذا، وله الحمد أن تم ذلك الأمر، وجعل رؤيتي صادقة كرؤيا يوسف.

ضمها إليه وقبَّل جبينها مرة أخرى، وقال لها: أنت الرزق الذي طالما دعوت الله أن يرزقني به؛

وأنت دعوة أمي التي ما فارقتها في كل سجود

."اللهم، ارزقه الزوجة الصالحة التي تقر عينه بها"

بستان التفاح

أبو أغيد رجل طاعن في السن قد بلغ التسعين عامًا،

ولكنك ما تزال تحسبه شابًّا يافعًا. ففي كل يوم بعد صلاة الفجر يمشي عدة أميال يتفقد من خلال جولته أراضيه، وبساتينه، وحقوله التي تكاد لا تعد لكثرتها. لا يكل ولا يمل، ولا يحس بأي تعب أو نصَب؛ وإني لو عملت نصف الذي يعمله لما أتى المساء عليَّ إلا وأنا جثة هامدة.

لكن أكثر ما يزعجه ويؤرقه؛ قطعة من الأرض اشتراها منذ عدة أعوام وما تزال بورًا؛ ولطالما أخبر ابنه أغيد بأنه يريد أن يزرعها بأشجار من التفاح؛ فيتلذذوا بمذاقها الطيب. بيد أن أغيد رجل كسول يحب النوم، ويكره العمل، دائما ما يجيبه: يا أبت- أطال الله لنا بعمرك، إذا زرعناها هل تضمن أن تعيش خمس سنوات حتى تأكل منها.

فيجيبه: يا بني، أولم تسمع إلى قول الرسول ﷺ "إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فليغرسها"

وإن لم يسعفني العمر لذلك الوقت فإن لي بها صدقات جارية. إذا أكل منها طير، أو إنسان، أو بهيمة.

بدأا بالعمل فقاما بحراثة الأرض، وتنظيفها من الأشواك العالقة، ومن الصخور التي تخالها نزلت من السماء فانغرست بين طياتها بشدة؛ فأصبحتا حبيبتين طاب لهما العناق، وتكرهان البعد عن بعضهما، كذلك والفراق.

مع الانتهاء من أمور التنظيف غدت الأرض كحسناء أرخت شعرها المتماوج المصبوغ بالحناء، مما يجعلك ترغب بالاستلقاء عليها، وأخذ سنة من النوم تسبح من خلالها في بحر من الخيال.

زرعا الشجيرات الصغيرة ودعوات أبي أغيد أن يبارك الله بها.

واليوم أبو أغيد يرنو إلى بستانه من بعيد فيراه قد اكتسى حلة خضراء والتفاح تداعبه قطرات الندى، وخيوط الشمس، فتحسبه مصابيح أضفت على البستان روعة وألقًا وجمالًا. يجلس تحت تلك الأشجار، يتفيأ بظلالها، وينعم بالنسمات العليلة الباردة التي تأتي من بين أغصانها. يأكل من ثمارها التي ما ذاق بعمره ألذ منها. ولكن في قلبه لوعة على ابنه أغيد؛ الذي مات منذ عشر سنوات إثر نوبة قلبية حادة.

ودارت الأيام

ألغى اجتماعًا مهمًّا، واعتذر عن حضور عشاء عمل، ونزل إلى السوق واشترى هدية لزوجته؛ كي يراضيها؛ فلقد تشاجرا معًا في الصباح، وعلا صوته عليها، وكاد أن يضربها، ثم غادر المنزل وتركها تسبح في دموعها التي انهمرت على وجنتيها، وبللت ثيابها، فهي رقيقة ومرهفة الإحساس؛ وتتأثر بأبسط شيء.

ولكنه لا يفهم سر تغيرها المفاجئ عليه، فهي لم تكن عصبية المزاج بهذا القدر من قبل. فلقد أصبحت تغضب منه على أتفه الأمور. يضحك ويقول إنهن النساء يصعب فهمهن أو التكهن بما يدور بخلدهن.

دخل إلى المنزل بهدوء كي يفاجئ زوجته ولكن المفاجأة الكبرى عندما فتح باب غرفة النوم ليراها مع صديقه بمشهد تنخلع منه القلوب، وتشمئز منه العيون.

باتت زوجته وصديقه ينتظرانه حتى يهجم عليهما كالأسد المفترس فيزهق روحيهما جزاء لما اقترفاه، ولكنه لم يفعل أي شيء بل أدار ظهره، وذهب إلى غرفة أخرى وجلس يبكي، وشريط الذكريات بدأ يلوح لناظريه بوضوح كما لو أنه يشاهد مسلسلًا.

منذ عشرين عامًا. كانت تعجبه إحدى فتيات الحي فأرسل لها مع أخته أنه معجب بها، وأنه مغرم بها، ويرجو الزواج منها. رفضت الأمر لكنها مع كثرة إصراره ومحاولاته لانت له، فقد أحست بصدق مشاعره نحوها.

بات يتبادل الرسائل الغرامية معها، وتطورت الأمور بينهما فصارا يلتقيان في إحدى الحدائق البعيدة خشية أن يراهما أحد. بعد سنة من الحب والغرام، أخبرها أنه يريد أن يراها في بيته؛ فإنه لا يشعر براحة عندما يتقابلان في الحديقة. فبالأمس، كاد أخوها أن يراهما عندما كان يعبر من أمام الحديقة، وإنه ليخشى من كلام الناس إن افتضح أمرهما فسيرافقها كلامهم السيِّئ مدى الحياة، وإن تزوجا من بعض.

تخبره أنها لا تستطيع فعل ذلك فاللقاء مع بعض في بيت لا يوجد به غيرهما أمر مريب؛ لا تضمن نتائجه وهو شيء تخشى عواقبه. وتذكره بحديث الرسول عليه الصلاة والسلام: "لا يخلون رجل بامرأة فإن الشيطان ثالثهما".

يقول لها: لو كنت تحبينني بصدق لفعلت ما أحب؛ فإن المحب مطيع لمن يحبه، إلا إذا كنت تلعبين بمشاعري، وليس عندك أي ثقة بكلامي ومشاعري نحوك، ونيتي الصادقة بأن أجعلك زوجة لي.

بعد طول جدال، وأخْذ وردٍّ؛ رضخت له وكأنها باتت دمية يحركها كيفما يشاء ويهوى.

دخلت إلى بيته فبدأ بالتغزل بها، وذكرها بكل وعوده لها وأنه يريدها حليلة له، ولمس يدها ثم تمادى باللمس وتعدى به؛ فابتعدت عنه لكنه استطاع أن يحكم سيطرته عليها والتمكن منها.

دموعها على خديها كالأنهار سالت، فكفة القدر بها قد مالت. تسأله بصوت تخنقه الدموع بالكاد يسمعه:

- أيعقل أن تفعل بي هذا وأنا حبيبتك؟.

يجيبها ببرودة أعصاب وهدوء، وكأن السكينة نزلت عليه، أو الرحمة غشيته:

- لا تقلقي يا حبيبتي، فأنا سأتزوجك ولن يعلم أحد بما حصل بيننا.

فأصبح يجبرها على المجيء إلى بيته كلما سنحت له الفرصة ليفعل بها ما تشتهي نفسه. وإن امتنعت فيهددها بأنه سيفضح أمرها، ويشيع خبرها، ويذيع سرها بين أهل الحي كلهم.

تجري الأيام مسرعة ولم يتقدم لخطبتها بعد.

ولقد رفضت العديد من الأشخاص الذين تقدموا لخطبتها. حتى أتى ذلك اليوم المشؤوم الذي قال لها فيه: إننا لا نستطيع أن نكمل الطريق معا؛

فلقد اكتشفت أننا غير مناسبين لبعض.

خالته للوهلة الأولى أنه يمازحها، ولكنه كان جادا معها، وأعلمها أنه قد عزم على خطبة فتاة أخرى فهي مناسبة له، وأنه لا يمكنه أن يتزوج من فتاة سلمت له نفسها، فقد تمكن غيره منها كما فعلت معه.

جرت دموعها وأحرقت خديها فهي كبركان ثائر أو أشد. وقالت له: اذهب، وإني أرجو الله أن يزوجك من فتاة تراها بأم عينيك، وهي تمكن غيرك منها على فراشك.

الحسد

"وسام أبو العينين اللتين لا تخطئان"- هكذا نسميه،

ما يسلك طريقا حتى نسلك غيره، وإن صادفناه؛ فما نزال نقرأ القرآن حتى يفارقنا خشية أن يصيبنا بعينه. فذات مرة، كنت صاعدًا على سلم خشبي في الحي أعلق أوراق الزينة؛ للترحيب بحجاج بيت الله الحرام، فمر من أمامنا شرعت بقراءة المعوذات لكن عينه كانت أمضى وأسرع.

انكسر السلم، وانقسم إلى قسمين وكأن فارسًا شديد البأس عاجله بضربة خاطفة. فسقطت على ظهري ولولا رحمة الله بي لأصبحت مشلولًا عاجزًا طوال عمري.

ذات مرة، ركب سيارته وذهب ليتفقد حقل القمح الذي استحصد. وبينما هو بالطريق؛ رأى حصادة تحصد قمح عمه، فقال وسام: منذ متى هذه هنا؟!

وما هي إلا هنيهات حتى توقفت الحصادة عن العمل، وخرج منها دخان حجب ضوء الشمس من شدته. حاولوا تشغيل الحصادة بشتى الطرق والوسائل ولكنها أبت. لقد تعطل فيها المحرك ويحتاج إلى فترة شهر لإكمال عملية تصليحه.

وإنها لفترة كافية لئلا يبقى على ظهر الأرض شيء يحتاج إلى حصاد.

أصابت صاحب الحصادة نوبة قلبية حادة كاد أن يفقد بها حياته. فهو ينتظر موسم الحصاد من العام إلى العام التالي فهو مصدر رزقه الوحيد. ولقد همَّ بأن يقطع وسام إلى قطع صغيرة؛ لما عرف بأن الحصادة تعطلت بسبب عينيه وكلامه.

احتار أهل البلدة ماذا يفعلون به، أو كيف يتعاملون معه؛ فقد أصبح هاجسًا يؤرق الصغير والكبير.

فكم تعطلت من مصالح، وكم من طريح الفراش ما بين مشلول؛ أو مكسور؛ وآخر تهدم بيته وكأن صاروخًا نزل به لما رآه وسام وقال: (شو هالجمال ولو).

اقترح أحد الأشخاص في الاجتماع المخصص لمناقشة أمره أن نجعل وسامًا يصيب رزقه بعينه، فلعل ذلك الأمر يكون رادعًا له. فلقد وضع أكياس القمح في أرض خاله حيث هو المكان الذي يضع به أهل المنطقة القمح منتظرين قدوم أحد المهندسين الزراعيين؛ ليكشف عن القمح فإما أن يعطي الموافقة فنقوم ببيع القمح إلى وزارة الزراعة بموجب العقد المبرم بيننا. وفي حالة الرفض؛ فنضطر إلى بيعه إلى التجار الذين لا يدفعون أكثر من نصف ثمنه.

قمنا بتغيير أماكن أكياس القمح ووضعنا أكياس وسام في الواجهة حيث يراه وسام في كل مجيء له. وإننا لنراه ينظر إليهم وعيناه تلمعان شررًا فهو يحسب أنها ليست له.

بعد عدة أيام، قدم المهندس لأخذ العينات فوجد في أكياس وسام نوع من الحشرات الصغيرة فقال: إننا لا نستطيع قبول تلك الأكياس بسبب تلك الحشرات، فإنها سوف تفسد المخازن كلها، وعليكم بالتخلص منها وحرقها؛ حتى لا تنتقل إلى باقي الأكياس.

وفي الوقت ذاته، لن يشتريها منكم أحد.

ضحك وسام بصوت عالٍ. فقلنا له في صوت واحد: - إنها أكياسك، يا وسام.

فخر مغشيا عليه.

ومن حينها، أقلع عن الحسد، وأصبح يذكر اسم الله، ويقول: "ما شاء الله"، كلما رأت عيناه شيئًا يعجبه.

مكرودهاء

خرج عماد من بيته قاصدًا الذهاب إلى العاصمة كعادته كل حين، ففيها يتحين الفرص للاحتيال على الأشخاص؛ فهي مزدحمة بالسكان، ويكثر الزائرون إليها بقصد السياحة، أو التسوق فهم فريسة سهلة بالنسبة إليه.

وقف على الطريق ينتظر قدوم الحافلة، فوقعت عيناه على حصادة متوقفة على جانب الطريق المقابل. لم يتمالك نفسه ودفعه فضوله الشديد إلى الذهاب ليرى الخبر، ويعرف سبب توقفها.

وفي تلك الأثناء، قدم رجل غريب فسلم على عماد،

وسأله عن صاحب الحصادة أين يمكنه أن يراه.

فأجابه عماد: أنا صاحبها. أخبرني- يا أخي- إن كنت تريد مساعدة، أو عندك حاجة فأقضيها لك.

فقال له: إن عندي ألف دونم قمحًا ويحتاج إلى حصاد، فهلا تكرمت علينا وقدمت إلينا لتحصدها لي.

قال له: على الرحب والسعة. لكننا نحتاج إلى يومين كي ننهي تصليح الحصادة ونتمُّ أمور صيانتها.

وبعدها أذهب لعندك- إن شاء الله. ولكن عليك أن تدفع مبلغ خمسمئة دولار أمريكي مقدمًا تكون دليلًا على التزامك معي، فقد تطلب من غيري أن

يحصدها لك، في الوقت ذاته الذي أكون قد اعتذرت عن حصاد محاصيل القمح لبعض زبائني لكي أفي بالتزامي معك.

قال له الرجل: إنك محق، وأخرج من جيبه المبلغ المذكور آنفًا وأعطاه لعماد.

وقال له: أراك بعد يومين عندي- بإذن الله.

بعد يومين، احتدت الشمس واشتدت، وما يزال الرجل واقفًا عند بداية حقله ينتظر قدوم عماد

قاربت الشمس على الأفول والضياع خلف الجبال.

فقال في نفسه: لعله لم ينتهِ بعد من تصليحها.

وفي اليوم الثاني، فعل كذلك حتى المغيب ولكن لا جديد

وفي اليوم الثالث لم يأتِ أحد؛ وسنابل القمح بدأت تميل وتنحني كعجوز بلغ التسعين عامًا، وحبّات القمح أصبحت تتساقط على الأرض كما تساقطت أسنان ذلك العجوز.

منذ فجر اليوم التالي، ذهب ليتقصى عن الأمر فرأى من بعيد تلك الحصادة مازالت واقفة مكانها وكأنها شجرة أو عمود للكهرباء لا يتزحزح من مكانه. اطمئن قلبه وهدأ روعه قليلًا.ولما وصل، سلم على الرجال الذين كانوا عندها، وسألهم: أين صاحب الحصادة؟

فأجاب واحد منهم: أنا صاحبها.

فأجابه الرجل: لا، أنت لستَ صاحبها.

بهت الرجال جميعهم ونظروا إلى بعضهم بتعجب واستغراب، ثم قالوا له: إنه صاحبها، ونحن نعمل عنده.

وقع الرجل على الأرض، وبدأت عيناه تدوران كالمغشي عليه من الموت. سكبوا عليه قليلًا من الماء حتى عاد إليه عقله؛ فقص عليهم القصص.

سألوه عن أوصاف ذلك الرجل الذي ادعى أنه صاحب الحصادة. فقال لهم: إنه طويل كالنخلة السامقة؛ ونحيف كعود الخيزران؛ وأسمر البشرة كأن وجهه دهن بالعسل؛ ورأسه كبير كالبطيخة كأن طفلا يسوق جرارًا مرَّ على شعره فتراه متعرجًا كمشي الحية.

قالوا له: إنه يدعى عماد. وعليك الإسراع إلى مخفر الشرطة لتقدم بلاغًا ضده؛ فإنه أشهر من نار على علم في النصب والاحتيال.

تأخر عماد بالسهر عند بيت أخيه زياد الذي عاد قبيل العشاء من سفر دام خمس سنوات فعزم على المبيت عنده في هذه الليلة. وفي الصباح الباكر، قُرع الباب بشدة وكأن مصيبة قد وقعت. فتح عماد الباب فإذا بأربعة رجال من الشرطة قالوا له: لقد علمنا أن عمادًا هنا وأتينا لأخذه معنا.

فأجابهم عماد: وما هو جديده في هذا اليوم؟

لقد سئمنا من نصبه واحتياله. لم يعد لدينا عين ننظر بها إلى الناس. أصبح وشم عار نُقِش على صدورنا وجبيننا لايفارقنا حتى ندخل القبر.يا له من معتوه أحمق.إنه نائم في تلك الغرفة.

وما إن دخلوا حتى حمل عماد حذاءه بيديه وعض على ثوبه بأسنانه واختفى بلمح البصر وكأنه ضرب من الجن. أمسك رجال الشرطة بزياد وقالوا له: مَن مِثلك تنصب في النهار وتنعم بالمال، ثم تتلذذ بالنوم الهانئ وكأنك ضمنت الجنة.

لم يستطع زياد التفوه بأي شيء من كثرة الضرب الذي انهال عليه، وكأنها سهام رماها جنود من فوق الحصن على الجيش العرمرم القادم لدك حصونهم

واستئصال شوكتهم. تورمت قدماه وانتفخ وجهه حتى بات كالبالون؛ وما إن دخل على غرفة المقدم حتى ارتمى عند قدميه يقبلهما ويقول له: والله، أنا زياد ولست عمادًا.

عندما تأكد المقدم من صدق قوله أطلق سراحه بعد اعتذار شديد بسبب الخطأ الذي حصل، ولكن أخاه هو السبب. فانطلق زياد كسرعة الريح وكأنه طائر سجين وفتح له باب القفص ويكانه نسي الألم الذي حل به؛ فالمهم عنده التخلص من ذلك العذاب الذي شرب منه ألوانًا.

أمر المقدم أن يتم إحضار عماد إليه، ولو كان في سابع أرض أو في الجزيرة المجهولة التي يسكنها الأعور الدجال. أحضروه مقيدا بالسلاسل؛ فلما أدخلوه على المقدم، هرع إليه وفك وثاقه وقال له:

- لا تبتئس، لقد عفوت عنك بسبب دهائك وسرعة بديهتك. ولكني أريد منك أن تعلمني بعضًا من حِيَلك وطُرقك في النصْب والاحتيال.

جلس عماد على أحد الكراسي، ووضع رِجلًا على رجل، وقال للمقدم: اطلب لي فنجانًا من القهوة؛ ثم أشعل سيجارة أخرجها من علبة دخان المقدم،وبدأ يتحدث إلى المقدم، ويقصُّ عليه بعض الطرائف والنُّكت حتى يشتت انتباهه.

وعلى حين غرة سأل المقدم:

- هل عندك مئة دولار أمريكي؟

فأخرجها المقدم من جيبه.

انقض عليها عماد كانقضاض النسر على فريسته، ثم جرى نحو الباب وقال للمقدم:

- هذه إحدى مكائدي. وأرجو أن تنال القهوة إعجابك.

ثم اختفى كالبرق الخاطف.

طبيب بيطري

كنت أسير مع أختي في إحدى طُرق القرية، والتي ربما يشق على المَعز السَّير عليها لشدة وعورتها.

من بعيد كان ظل فتاة يقترب منا، تمشي كالسَّحاب المُثقَل بالماء خشية التعثر والسقوط.

مرَّت بجانبنا وتعجبت من أن أختي لم ترمِ عليها التحية والسلام كعادتها حين تصادف أي بنت سواء أكانت تعرفها أم لا.

قلت لأختي:

- لِمَ لَمْ تسلِّمي على تلك الجميلة، ذات العينين الواسعتين كالمها، وما أعذب قطرات الشهد التي انتظمت كاللؤلؤ على لماها.

أخبرتني بأنها تلك الفتاة ذاتها التي خطبتها أمي لي منذ عدة أشهر، ولم يوافق أهلها على تزويجها لك بحجة أنك طبيب بيطري.

- ماذا يعيب الطبيب البيطري؟ أليس هو إنسانًا كباقي البشر؟ أم أنه فاقد الحس والشعور كالحجر؟!

أليس هو الذي يضحي بنفسه ووقته من أجل معالجة الحيوانات؛ فيعيد إليها عافيتها ويشفيها بإذن الله.

فهذا شق من الرحمة، ومن ثم توفير الغذاء الصحي السليم الخالي من الأمراض التي تفتك بالإنسان؛ فهذا شق إنساني فلا يسمو فوقه أي شيء.

ما يزال طيف تلك الحسناء يراودني، ونسمات هواها لا تبرح تداعبني، وأينما أدرت بصري أرى طيفها. فوجهها مشرق بنور الحياء قد جملته رائحة الأخلاق. بينما أنا جالس أتناول كأسًا من الشاي مع صديقي رامز؛ سمعنا صوت صراخ امرأة تنادي:

- أغيثوني أغيثوني...

فزعنا إليها.

- ما الخبر؟!.

فقالت: إن ابنتي الصغيرة دخلت إلى إسطبل الفرس

وإن الفرس هائجة، وتحاول أن ترفس ابنتي.

أرجوكم، أنقذوها قبل فوات الأوان.

أسرعت إليها واقتربت من الفرس، وبدأت أتكلم معها، وكأنها فتاة حسناء أبادلها كلمات الغزل الرقيقة، ووضعت يدي على رقبتها وبدأت أدلكها بهدوء. ثم طبعت قبلة على وجهها الأبيض كالثلج، وعانقتها عناق المشتاقين بعد طول فراق. فهدأت وكأنني أعطيتها مخدرا؛ ثم توجهت إلى الطفلة وحملتها وضممتها بحنان حتى سكت عنها الخوف والفزع.

ذاع الخبر في أنحاء القرية، وانتشر كسرعة البرق.

فكلما مررت من أمام امرأة أو رجل يلقي عليَّ السلام، وشعارهم أهلا بالمنقذ البطل.حتى أن أم فهمي والتي كانت تتقزز من منظر ثيابي المتسخة بمزيج من الدماء وروث الأبقار، وتضع يدها على أنفها لكي تتجنب اشتمام رائحتي الكريهة؛ أقبلت إليَّ وقالت لي وهي تحضنني: بارك الله فيك وبعملك، وأعطاك قوة وخيراً وفيراً.

اشتد البرد، والريح زادت سرعتها، وكأنها في سباق. إنها ليلة عاصفة يبدو أنها لن تمر بسلام، وإني لأخشى أن تكون كريح عاد لا تبقي ولا تذر.

انتصف الليل والنوم يلعب معي، فتارة يقترب مني حتى اذا أوشكت على احتضانه يبتعد، وهكذا كرٌّ وفرٌّ. فصوت ضرب الرياح لسقف بيتنا الحديدي كصوت الطبول إذا قرعت منذرة بخطر محدق أو اقتراب اندلاع الحرب. طرق باب بيتنا بقوة شديدة طغت على صوت الرياح وكأنها تلاشت فجأة.

قمت مسرعًا فربما تكون بقرة أبي وليد قد شارفت على الولادة وتحتاج إلى مساعدتي؛ أو أن ناقة أبي جمال أصيبت بمغص شديد كعادتها عند هبوب الرياح وتدني درجات الحرارة، فهي أشبه بطفل رضيع.

فتحت الباب فإذا برجل يقول لي: أدركني، وقاك الله من زمهرير جهنم.

سألته: ما الأمر يا عماه؟!.

فقال: إن ابنتي تعسَّرت ولادتها، وأخبرتني الداية أم أمجد أنها تحتاج إلى عملية قيصرية في هذه الليلة أو أخسرها. وكما ترى غزارة الأمطار وشدة الرِّياح، وليس بإمكاننا الذهاب إلى المدينة فطريق القرية قد سدته المياه حتى غدت كالسور الذي بناه ذو القرنين لا يخترق.

قلت له وأنا مندهش: ولكن ما الذي أستطيع أن أفعله

لأساعدك؛ فأنا طبيب بيطري ولست طبيبًا بشريًّا.

فقال لي: لقد سمعت أنك عملت عملية قيصرية منذ عدَّة أيّام لبقرة جاري، وأثنى عليك وعلى إتقانك في عملك.وإنّي أريد أن تجري لابنتي عمليَّة قيصريَّة عسى تنقذها، وتنقذ الجنين الذي في بطنها.

احترت في أمري وسألت الله أن يعينني.أخذت معي ما يلزمني لاجراء العملية وذهبت معه.

والجميل بالأمر أني حضرت محاضرة ذات يوم في كلية الطب البشري، وكان موضوعها عن إجراء العملية القيصرية، فأنا أستطيع الآن معرفة المكان الذي سأجري به العملية.

بدأت بالتَّسمية وقراءة القرآن، وقلبي خائف يرتجف، ثم قمت بالتخدير الموضعي، وما هي إلا دقائق حتى استهل المولود صارخًا بين يدي.

انهمرت دموعي وكانت غزيرة كالغيث. لا أدري ربما لأنها أول عملية لي لامرأة، أو ربما لأنني أنقذت حياتها هي وابنها.

استئذنت بالانصراف؛ فأعطاني الرجل مبلغا من المال جزاءً لي على صُنعي، وهو يقول:

- والله، لا أكافيك مهما فعلت؛ فالروح لا تقدَّر بثمن.

اعتذرت منه ورفضتها وقلت له:

- هو عمل خير ساقه الله لي، ولن آخذ الأجر إلّا من الله- سبحانه وتعالى.

وفي الصباح، قرع باب بيتنا؛ فتحت الباب فإذا به الرَّجل ذاته. أقرأني السلام وأخبرني أنه نادم على نظرته لي، وأنه يطلب مني العفو والصفح، وطلب منّي أن أجعل أهلي يزوروهم؛ ليخطبوا لي ابنته من جديد.

لأنني مطلقة

منذ نعومة أظفاري، وأنا متعلق ببنت جارنا أبي إسماعيل كثيراً. أمضي معظم وقتي معها، حتى بات أهل الحي يطلقوا علينا اسم التوأم، أو العروسين.

كنت لا أدع أحدًا يقترب منها، أو يؤذيها، وخاصة أولئك الصبية، ومتزعمهم إياد شديد الغيرة مني كيف تكلمني ابنة أبي إسماعيل، وتلعب معي، وتلهو، وتمرح دونهم.

ذات مرة كانت تلحقني، فأتى إياد ووضع رِجله في طريقها؛ فتعثرت بها وسقطت على الأرض، وجرحت يداها، وبدأ الدم ينزف، فأمسكته وبدأت به ضربًا، ثم حملته، وهممت أن أرميه إلى سفح الوادي لولا أن منعني بقية الأولاد من ذلك.

أصبحت شابًا يافعًا في مقتبل العمر، ورغبت بالسفر للتجارة. أمضيت أعوامًا كثيرة، وأنا بعيد عن قريتي: أكافح بها الصِّعاب؛ حتى أصبحت ثريًّا، وتاجرا مشهورًا. وها قد حان أوان الأوبة إلى مسقط رأسي، فإن الحنين أكل مني، والنوى أحرق قلبي، ووجداني، وكما قال الشاعر:

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى....

ما الحبُّ إلا للحبيب الأوَّل

كم منزل في الأرض يألفه الفتى....

وحنينه أبدا لأوَّل منزل.

وصلت إلى حيِّنا. ما زال كما كان، وكأنني تركته يوم أمس. وبدأت نسائم الذكريات تهب عليَّ، فتأجج نار الأشواق في قلب صار رمادًا تزروه رياح الغربة، والابتعاد.

طرقت الباب؛ ففتحه أبي، ربما لم يعرفني للوهلة الأولى؛ فالليل أرخى سدوله. أخذ نفسًا عميقًا، وقال: إنها رائحة ابني. فضممته، وقبَّلته، فوافت أمي لما سمعت صوتي؛ والدمع منها ينهمر كالأمطار، فقد طالت سنين بُعدي عنها، وتمادت حتى كاد يهلكها ألم الفراق.

جلسنا نتحدث وأسألهما عن أخبار الأقارب والجيران. جارنا أبو أحمد مات، وجارتنا أم سامر حرقت يداها وهي تخبز بالتنور، وفلان تزوج، وآخر طلق زوجته، وفلانة أنجبت أربعة أولاد ببطن واحد....

أما ابنة أبي إسماعيل فقد تزوجت من رجل قد أتى إلى قريتنا، ومكث بها حينًا من الزمن، ثم شد رحاله إلى بلدته.

انتابني حزن عميق، وألم شديد، لما سمعت بهذا الخبر. فقد كنت عازمًا على الزواج بها عند إيابي، ولكن قدَّر الله وما شاء فعل. وسألتهما عن حالها، فأجابا: مذ أن رحلتْ لم نسمع عنها أيَّ شيء.

بدأت أذهب في كل يوم إلى بيت أبي إسماعيل لأتفقده، وأطمئن عليه، فقد أصبح هو وزوجته طاعنين في السن لا يقدران على فعل أي شيء. وأولادهما الذكور قد تزوجوا وكل واحد منهم بات مشغولًا بزوجته وأبنائه، فقل ما يسألوا عنهما، وربما لا يزورونهما إلا في الأعياد.

فتحت محلًّا تجاريًّا كبيرًا لبيع الملابس النسائية والعطورات، وأدوات التجميل، بالجملة.

كل مساء أجتمع مع أبي، وأمي، وأخوتي نتحدث، ونتسامر.

اقترحوا علي بأن أتزوج من قريبة لنا، فهي جميلة، وملائمة لي.

ولقد أعجبتني لما رأيتها، ودخلت إلى فؤادي.

مضت عدة أعوام؛ ولم يرزقنا الله بالأولاد؛ كان العقم من جانب زوجتي، فعرضت عليَّ الزواج من فتاة أخرى عسى أن يرزقني الله بما يفرح به قلبي؛ ولكني عارضت الأمر، ورفضته بشدة رأفة بزوجتي المطيعة لي في كل أمر، فهي تحبني كثيراً، وتعتني بي وكأنني طفلها الصغير.

كعادتي ذهبت إلى بيت أبي إسماعيل. وبينما نحن نتحدث؛ قرع الباب. فتح أبوإسماعيل الباب؛ فإذا بابنته، فلذة كبده، وقد مضت أعوام عديدة، وسنين مديدة، ولم يسمع أي خبر عنها. بعد طول عناق، وقبلات حارة، وبحر من دموع الفرح. ألقت عليَّ التحية، ثم دخلت إلى الغرفة المجاورة. استئذنت بالانصراف؛ كي لا أشغلهم عن ابنتهم، وأحفادهم الثلاثة، فإنهم يرونهم للمرة الأولى؛ فأكبرهم لم يبلغ الثلاث سنوات بعد. وإنهم كالزهور الجميلة، ولقد لهف قلبي لهم؛ فطبعت قبلاتي على وجناتهم، وكأنهم أولادي.

ذهبت إلى بستان قريب، جلست في ظلال إحدى الأشجار، والذكريات تداعبني، ثم أدركت نفسي، واستعذت بالله من وساوس الشيطان، وكيده، فإنها متزوجة؛ ولا يحل لي التفكير فيها؛ وزوجتي فلا أنسى فضلَها عليَّ، وحبَّها لي.

ذهبت أمي لتسلم عليها، فهي حبيبة لها، وكم كانت ترجو أن تكون زوجتي، ولكن سهم القضاء كان أمضى.

أرى الحزن مرسومًا على وجه أمي.

- ما بك، يا أماه؟

- ابنة أبي إسماعيل...

- ما بها...

- طلقها زوجها، وعادت لتعيش مع أبويها.

- ما السبب الذي أدى إلى طلاقها؟

سؤال مشترك من إخوتي، والدهشة تعلو وجوههم.

- إنها تدعي بأن زوجها يضربها كثيرًا، كأنها حمار عنده، أو دابة، ويشتمها في كل حين. ولقد صبرت عليه، وكم دعت الله في جوف الليل كي يصلحه، ويهديه. فعساه أن يقلع عن شرب الخمر، وعن لعب الميسر، الذي أذهب بأمواله، كما تلتهم النار الحطب، أو كما تبتلع الحفرة الماء، فلا يبقى منه أثر.فقد أصبحت هي، وأولادها؛ عظامًا تسترها رقائق من اللحم.وعلامات ضربه لها مرسومة على كل بقعة من جسدها.

قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله، صبرها الله على ما ابتلاها.

تمعنت في عيون إخوتي، وكأنهم لم يصدقوا الخبر، حتى أمي كانت تروي القصة، ويبدو أنها غير مقتنعة بها. فالطلاق، والضرب بعد تلك السنين من زواجهم قد تكون له أسباب أخرى لا تحب الإفصاح عنها، فتسترت وراء تلك الأقاويل.

لم يقربني النوم، وما غمض لي جفن، أتقلب يمينًا، وشمالًا، وأنا أفكر بحالها؛ فإني أكثر الناس معرفة لها. ولكن قد تكون الأيام غيرتها، فما أكثر من ينقلب بعد ثبات.

أرسلت سرًّا رجلين من أصحابي كي يسألا عن زوجها، وعن سبب الطلاق. وما يزال الوقت مبكرًا لرجوعهما؛ فإنه يسكن في بلدة نائية. وإني لأرجو أن تكون صادقة في قولها؛ فأقطع لسان كل من يتجرأ على أن يؤذيها ولو بكلمة واحدة.

بعد عدة أيام، جاءني أبوإسماعيل وأخبرني بتردّي وضْعهم، وسوء حالهم، فهو لا يستطيع العمل، وازداد مصروفه مذ رجعت ابنته، وأولادها. عرضت عليه أن أتكفل بمصروفه، فإني- والحمد لله- أصبحت غنيًّا، ميسور الحال، ودون أن يعلم أحد بهذا؛ لكنه الإباء، والكرامة، فأبى ورفض، وقال: إنما أريد أن تعطي لابنتي بضاعة فتبيعها هي؛ فنكسب قوت يومنا، وما يغنينا عن سؤال الناس. فقلت: سمعًا وطاعة. لك مبتغاك.

باتت تأتي كل فترة إلى محلي، وتأخذ ما تراه مناسبًا لزبائنها، وما يلائم أذواقهن، فقد صارت تعرف المرغوب، والمطلوب. ولكن الأمر كان صعبًا، فالعديد من النسوة لا يستقبلنها في بيوتهن؛ لأنها مطلقة. وقد منعن بناتهن من الاختلاط بها خشية أن تفسدهن.

وكل شاب يراها يسمعها كلامًا غير لائق، مقرونًا ببعض الشتائم، والإهانات. وإذا مرت بقوم يتغامزون فيما بينهم، ثم يضحكون بسخرية، ويقولون: إنها المطلقة.

تحبس كل ذلك في قلبها الذي كاد أن ينفجر، فقد فرط صبره، وتلاشى جلده. تمضي بطريقها، وتقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

وبينما نحن قاعدون نتناول العشاء؛ سمعنا صريخًا ملأ أركان الحي. ما الأمر؟! ماذا حدث؟!

هل مات جارنا أبو زياد؟ الذي سقط من سطح منزلهم يوم أمس. أم هل ماتت جارتنا؟ التي ما برح الدم ينزف منها بعد ولادتها العسيرة منذ يومين. كلا إن الصوت قادم من بيت أبي إسماعيل. أسرعنا، وطرقنا الباب، فلم يفتح لنا أحد. فزاد خوفنا، وقلقنا، وكسرنا الباب، ودخلنا. وإذا بإسماعيل ممسك بأخته ويضربها ضربًا مبرحًا، كما يضرب البغل إذا أبى مواصلة حراثة الأرض. مسكناه بعد جهد، ومحاولات منه للتفلت منا. وقلنا:

- رويدك، يا إسماعيل، ما هكذا تعامل القوارير.

صرخ بنا وطلب منا الخروج من بيتهم، فهذا ليس شأننا، ويجب علينا ألا نتدخل فيما لا يخصنا؛ فإنها أخته، وسوف يذبحها كما تذبح الشاة.

- تذبحها؟! وماذا فعلت لتستحق الذبح، يا إسماعيل؟!

تلعثم قليلًا، وأطرق رأسه، وقال: أخبرني إياد أنه كان ذاهبا إلى بستانه مع رفاقه، وفجأة رأوا في البستان المجاور رجلًا مع امرأة بدون ثياب. فغضضنا بصرنا، وأدرنا ظهورنا، فقد خلنا أنه رجل وزوجته. لكننا أحسسنا بحركة مريبة. فنظرنا فإذا بالرجل يهرب. تقدمنا إلى تلك الفتاة فإذا هي أختك، يا إسماعيل، ولم نستطع اللحاق بالرجل لنعرف من يكون ونقتص منه. وإنه يعز علي يا إسماعيل، أن يهتك عرضك، وتباح حرماتك، وأنت غافل، ولاتدري عن ذلك شيئًا.

تنهَّد إسماعيل وقال بصوت مغضب كالرعد إذا أثقلته السحاب: اسألوها مع من كانت؟ فأجابت ودمعها يسبقها: والله إني لا أعلم عن الأمر شيئًا، وإنه لافتراء، وكذب، وبهتان عظيم.

بعد أخذ ورد، قدم الشيخ مصطفى عالم لا يشق له غبار، وجميعنا يحبه، ويجلُّه، ويحترمه.

اقترب منها وقال: أي بنيتي، إن كنت قد أخطأت فالاعتراف بالخطأ فضيلة، والتوبة منه واجب، وخلع رداء سوءته بإقامة الحد.

فأصرت على جوابها السابق.

صاح الشيخ مصطفى: أين إياد؟ عليه أن يأتي بالشهود الذين قد رأوها مع ذلك الرجل.

فشهد إياد، وثلاثة معه بذلك، ووثقوا شهادتهم بأيمان مغلظة، وأن الله على ما يقولون شهيد.

لا مناص الآن، ولا مهرب، وأين المفر بعد هذا القول، وتلك الشهادة.إسماعيل عارض أن يقام عليها الحد إلا بعد أن تخبرهم مع مع كانت، حتى ينال عقابه أيضا، فعليه من الإثم ما عليها.

أخذها إسماعيل إلى بيته، وحبسها في زريبة الغنم، ومنع عنها الطعام، والشراب، وبات يتفنن في تعذيبها، وضربها، حتى أن زوجته أصبحت تفرغ كل غضبها عليها.

ليس لديها دليل يثبت براءتها، وليس بيدها حيلة فتتخلص من هول ما تقاسيه، فظلم، وألم، وجوع، وعطش، وكلام الناس الذي لا يرحم، والأقسى إقصاء أولادها الصغار عنها. فحرموها من لذة النظر إليهم، وشم عطرهم، فأيُّ عذاب وقع بها؟. وأيُّ ابتلاء نزَلَ عليها؟ تبكي بحرقة، وتقلب وجهها في السماء، وتقول: يا رب، أنت تعلم أني بريئة، وإني قد جعلت الأمر إليك، وأنت أحكم الحاكمين.

الآن، يا إسماعيل أصبحت مهتما لأمر أختك؟ فمنذ أن عادت إلى بيت أهلها، لم تسأل عنها، ولا عن حالها، وكيف يؤمن أبوك احتياجاتهم، ومصروفهم، الذي تضاعف بعد عودتها؟

وآه كم شربت مرَّ الكلام، كالحنظل، وكم من بيت طردت منه وأنت لا حس لك، ولا خبر.

أشفق بعض كبار الحي على حالها، وقالوا: فلنعجل بإقامة الحد، وبعد ذلك يصير أمرها إلى الله.

حان الوقت للنهاية. اجتمع الناس ثم جاؤوا بها مقيدة ووضعوها في حفرة، وردموا التراب عليها؛ حتى ألجمها، وكادت أن تختنق، ليس من التراب، بل من الكلام الجارح الذي تسمعه من أخيها وجيرانها...

أنا متيقن أنها بريئة كبراءة الذئب من دم يوسف، ولكني لا أستطيع فعل شيء.

اقترب منها الشيخ مصطفى وتحدث إليها، فأومأت رأسها بالرفض، كأنه يسألها أن تقر بخطئها، وتفشي مع من كانت. بدأ الناس يحملون الحجارة كي يرموها بها.

صرخت بأعلى صوتها: لماذا؟ لأنني مطلقة أصبحت سلعة رخيصة، بل طعامًا مشاعًا يأكل مني من يشتهي، ثم يرميني، إذا ما شبع...

لأنني مطلقة أصبح قذفي، والخوض في عرضي أمرًا مباحًا لمن يشاء دون أن يردعه أحد... لأنني مطلقة أصبحت كالزجاج، يرميني الناس بأقبح الألفاظ، وأشنع العبارات، وأفظع الإهانات؛ فتنهال عليَّ سهام الشتائم؛ تتسابق أيٌّ منها تصل أولا لتكسرني، وتحطمني، مدعية بأني مذنبة، وأستحق ذلك العقاب... لأنني مطلقة أقيد اليوم بين التراب، وكلكم ينظر إلى كلامي على أنه محاولات يائسة مني، لأثير شفقتكم، وعطفكم فتخلون سبيلي....

وإنني- وأيم الله- لمظلومة، وقد فوضت أمري إلى خالقي...

شرع الناس ينظرون إلى بعضهم بتعجب. ولقد صدقت بكل ما قالت، بل إن بعضهم سخر من كلامها.

يارب أرشدني، يارب ألهمني، دعوته بصدق. فإذا بي أجد نفسي واقفًا أمام الناس، أصرخ بأعلى صوتي، أين إياد، والشهود؟ فتقدموا نحوي، فأمسكت بضعة أحجار وناولتها لهم، وقلت لهم: أنتم رأيتموها، وأنتم من سينفذ القصاص.

ولكن إذا كنتم كاذبين فستحملون دمها، وإثم قتل مؤمن متعمدا. والله يقول في كتابه:

"وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا".

ثم شققت الصفوف؛ لأبتعد فإني لا أقوى على تحمل رؤيتها بهذا الموقف...

سمعت صوت أول حجرة انطلقت نحوها، لكنها كانت بعيدة، فصوت وقوعها على بركة الماء مسموع بكل وضوح. وبدأ يعلو ضجيج الناس. التفت لأرى الأمر، فإذا بإياد جاثٍ على ركبتيه، يبكي بلوعة، ويقول لها:

- سامحيني، لقد افتريت عليكِ. سامحيني، فحقدي عليكِ ما زال يرافقني منذ طفولتي. سامحيني فبعد أن تمنعت عن الوقوع في الخطيئة معي قررت أن أنتقم منك...

أسرع أبوإسماعيل بلهفة، وبدأ يزيل التراب عن ابنته، ولو تركناه لأذاب التراب بنهر الدموع الذي جرى من عينيه...

أما إسماعيل فقد فر بعد أن بانت براءة أخته، فهي لا تهمُّه إلّا إذا أخطأت، ليغسل العار الذي سيلاحقه طوال عمره...

تم جلد إياد، والشاهدين معه زورًا، كل واحد ثمانين جلدة، ليكونوا عبرة لمن سولت له نفسه قذف المحصنات...

من بعيد لاح طيف رجلين تقدما نحونا، وكأنهم حاملين قميص يوسف معهم. إنهم صاحباي الذين أرسلتهما للسؤال عن زوج ابنة أبي إسماعيل. لقد صدقتْ بكل ما قالت. وإن الذي قد كان زوجها قُتِل بعد خلاف بينه وبين الذين سلبوه بيته بسبب لعب الميسر معهم.

زوجتي أخبرتني أنها ترغب بأن تزوجني منها فعسى أن يرزقني الله بما يسعدني، وتقر به عيني، ويهنأ به قلبي.

وصل الأمر إلى الملك، فعين وزيرًا، وكلفه بالاهتمام بشؤون المطلقات، ورعايتهن، وتقديم ما يحتجن إليه. فيكون ذلك عونًا لهن في أمورهن، وحصنًا منيعًا أمام من تسول له نفسه بالاقتراب منهن، أو المساس بكرامتهن.

نبذة عن المؤلف

الاسم: محمد عبد المعين غنوم.

مواليد: كانون الثاني 1988

مكان المنشأ: سورية/ محافظة إدلب/ مدينة سراقب.

خريج كلية الطب البيطري 2012 جامعة البعث سابقًا (جامعة حماة حاليّا)

الهوايات: كتابة الشعر، والقصص، والخواطر...

البريد الإلكتروني:

Mohammadghannom88@gmail.com

الفهرس

مقدمة الكتاب..... 7
وحيدًا..... 9
القمر الحزين 13
حَرْب الماء..... 17
على فِراش الموت 23
امتحان اللغة الأجنبية..... 27
ربتني أمي 33
ماذا سرقنا؟ 45
زواج بلا مهر..... 51
نوافذ 57
المنع لحكمة 61
ردُّ الدين 65
بستان التفاح 71
ودارت الأيام..... 75
الحسد..... 81
مكر ودهاء 85
طبيب بيطري..... 91
لأنني مطلقة..... 97